

فَيَابَتْ الْجُبَّ

الناشر



التحقيق للطباعة والنشر والتوزيع

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة  
أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي  
سماح الجمال

المدير الفني  
أحمد جابر

تصميم الغلاف  
أحمد صادق

التصميم الداخلي  
حسين الحماقى

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع الستين - المجاورة الأولى

- الحي الأول - مدينة الشيخ زيد -

العجيزة - مصر

تليفون: 00202 - 38511969

001 - 0128868875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الثانية

1438 هـ - 2017 م

محفوظة  
جميع الحقوق

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

2017 / 11232

الترقيم الدولى:

ISBN: 978 - 977 - 6580 - 80 - 0

# غِيَابَةُ الْجُبِّ

أسامة هشام



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد ..

كُلُّ الذي يحدث في هذه الثورة السورية، لا أجد فيه غريبًا ولا جديدًا.. الحقد النصيري، والتعذيب الوحشي، والاستهانة بالمقدّسات الإسلامية، والاعتقالات، واحتباس الناس كرهائن، والاستهتار بالمواطن، والكذب الإعلامي الوقح الوضع، وإفساد القيم والمثل الأخلاقية في صفوف الشعب... عايشناه وشاهدناه منذ أكثر من أربعين سنة.

هي حرب ضد السوريين عامة والمسلمين خاصة بدأها حزب البعث منذ الستينيات في القرن الماضي واستأنفها المجرم المقبور حافظ الأسد، وتحولت من حكم الحزب إلى حكم العائلة، الغاية منها نهب خيرات البلاد إلى فئة صغيرة مستفيدة، وتدمير سوريا عسكريًا واقتصاديًا وأخلاقيًا، وتنفيذ ما عجزت إسرائيل عن تحقيقه على مدى سبعين عاما، ويكملها الآن وريثه وتلميذه الذي فاق أستاذه في الإجرام، لعنة الله عليه وعلى أبيه في الدنيا والآخرة.

كنت أعتقد أن تجربتي مرّت وانقضت وأصبحت في ذمّة التاريخ، وكنتُ أحجّم عن الحديث عنها بسبب استمرار النظام البوليسي القمعي الإرهابي في سوريا، وما كنت أحب نقل معاناتي إلى الناس تجنبًا لإزعاجهم بالقصص الكئيبة على القلوب والتي تكدر المزاج، وكذلك فإن هذا الحديث يثير في نفسي شعورا مريرا بجرح قديم لا أحب أن أنكأه، حتى أن أولادي لا يعلمون الكثير عن تفاصيل تلك المحنة لأنني لم أكن أتحدث عنها، ورأيتُ أن

غيري كتب في هذا الموضوع وكفى ووفى، فقد انقضت المحنة وحصل الذي حصل، ولا رجوع في التاريخ، واحتسبتُ أجري عند الله.

أمّا وقد أصبح الجهاد على أسنّة الرماح، واتّسعت رقعة الحرب على الإسلام، واكتشفتُ أن كثيرا من الناس يجهلون تماما ما كان يحدث في غياهب سجون الظالمين، بل ويترحّمون على المقبور حافظ، وكثيرا ما رأيتُ ملامح الدهشة والعجب في وجوه من رويتُ لهم بعضَ الفصول من روايتي الرهيبة، لذلك رأيتُ أنه من واجبي أن أنشر تجرّباتي للناس، لعلّه يكون فيها شيءٌ من الدرس والموعظة، وكشفتُ لخبايا هذا النظام المجرم، وجهادٌ بالكلمة.

أسرُدُ في هذه الرواية الحقيقية بعضَ القصص التي عشتها بنفسي خلال خمسة عشر عاما في تدمر، وسأنقلها بأمانة، ولكني سأرسّمها بشكل لوحات متفرقة حسب الخواطر التي تردني، ولا يشترط فيها التسلسل الزمني الدقيق لأن القصص كثيرة ولم أعد أذكر أيها قبل وأيها بعد.

وسأشرح المصطلحات التي كنا نستعملها ونتداولها في السجن مثل: السخرة، الدوسير، المُعلّم، البلدية، المسؤول الصحي، الحارس الليلي، رئيس المهجع.. وسأعلق على كل واحدة في حينها.



## يوم الاعتقال

كنت مع زملائي في جولتنا الصباحية الطبية اليومية في المستشفى حين خرجنا من إحدى غرف المرضى لنتابع من في الغرفة التي بعدها، فاستوقفني رجل مُريب وقال: أريد أن أتكلم معك.

ظننته أحد أقرباء المرضى ويريد أن يسألني عن حال مريضه، فأجبته: «نعم، ولكن بعد أن أنهي جولتي على المرضى».

فأمسكني من يدي بغلظة- ولمحُتُ مسدّسا على خاصرته- وقال: «بل الآن». عرفتُ بأن في الأمر مشكلة، وأن الرجل من مخابرات الأسد وقد وقع المكروه. في الحقيقة كنت أسمع في تلك الفترة عن المداهمات والملاحقات المجنونة للشباب الإسلاميين، والحملة الشرسة للاعتقالات، ولكني لم أكن خائفا، ولم أحاول الخروج من البلاد مع أنه كان بوسعي ذلك، صحيح أنني كنتُ أصلي، وكنت معاديا لسياسة الدولة العامة التي طغى عليها صفة العنصرية النصرية، وذلك كان شعور معظم الناس، ولكن لم يكن لي نشاطات أو معرفة بحزب الإخوان المسلمين، ولم أكن أعلم أن الحرب ضد الإخوان كانت الشماعة التي علّقَ عليها حكم البعث كلَّ جرائمه، وأنها كانت حربا ضد الإسلام تحت شعار محاربة الإخوان (كما هو الحال تماما في عهد الرئيس الابن: حرب على الإسلام تحت شعار محاربة الإرهابيين

والعصابات المسلحة، وإن التاريخ يعيد نفسه).

فورا سألني الرجل: «أين حسام؟».

كانت مفاجأة ثانية!... إذاً هو يريد حسام!

كان أخي حسام يدرس الطبَّ أيضاً، ولأجل الأقدار كان دوائمه حسب ما هو مقرر في برنامج الكلية أن يكون في نفس المشفى الذي أعمل به، وجاء هذا الرجل المخبراتي يبحث عنه، وربما قادته الكنية المشتركة إليّ.. فسيحان الله.

المفاجأة أربكتني... فقلت له في سذاجة مكشوفة: لا أعرفه... قال حسنا، امضِ معي.

أراد أن يخرج بي فورا من المستشفى، وأنا في اللباس الطبي الأبيض الرقيق (وكنا في كانون ثاني).. قلت له أغيرُ ثيابي وألبس ثيابي الشتوية، فرفض في البداية وأصرَّ أن أخرج معه في عزِّ الشتاء إلى الشارع بلباس صيفي ونصف كم، وأنا أصررت بالمقابل، فوافق على مضض.

خطر ببالي أن أحاول الهرب، ولكن.. بالتأكيد المشفى مطوَّق وسوف يطلقون الرصاص عليّ ويقتلونني كما أطلقوه على زميلي «مخلص قنوت» منذ عدة أيام.. مغامرة لا داعي لها!

«مخلص» من مدينة حماة، كان طبيبا من زملائي يختص في قسم الجراحة في مشفى المواساة، داهمته قوات المخبرات في المشفى، فحاول الهرب، فأطلقوا عليه النار وأصيب بعدة طلقات ولكنه لم يقتل، واحتجزوه في سجن المشفى للعلاج.. ثم اقتيد إلى تدمر وفي رجله عرَجٌ بسبب إصابته حيث أعدم -رحمه الله-.

عاود السؤال مرة ثانية بإلحاح، وكأنه متيقنٌ أنني كذبتُ عليه «ألا تعرف حسام؟».

فكرتُ في نفسي أنه سوف ينكشف أمري آجلاً أم عاجلاً وستصبح المشكلة أكبر، قلت له: «نعم إنه أخي».

قال: «إذن لماذا أنكرت؟» قلت له «ارتبكت».. قال «أين هو الآن؟».. «قلت لا أدري».

المهم أنني ركبت في سيارة عادية في المقعد الخلفي (بيجو)، ومضوا بي، وبعد أن قطعنا مسافة، استدار نحوي ولف رأسي بعصاة سوداء غطت عيوني فلم أعد أدري أين نسير.

وصلنا.. أنزلني من السيارة، وأمسك بيدي بغلظة، ومشى بي، وأنا مغمض العينين، وصلنا إلى درج.. نزل.. فنزلت معه وأنا أخشى أن أقع، شعرت بأني أعامل كمجرم منذ اللحظة الأولى.

فتشوني، أخذوا كل شيء. المفاتيح والنقود والساعة. فتحوا باباً حديدياً، وقالوا ادخل.

دخلتُ، فوجدت أنها غرفة كبيرة (مهجع)، مكتظةٌ بالموقوفين، جالسين على الأرض متجاورين مثل أسياخ الكباب، تحتهم بطانيات عسكرية، لحاهم طويلة، وبعضها طويلة جداً..

جلست قرب الباب.. آخر مكان.

كان جانبي شاب رقيق، حديث السن يبدو أنه طالب مدرسة، استأنست به.. فسألته بصوت خافت:



شيء.. نحن لا نريدك أنت، بل هو، وأنت ستعود فوراً إلى مشفاك".  
 لم أكن بالطبع أجرواً على الرفض والتمرد في موقف لأحسد عليه،  
 فحاولت التهرب وقلت له "لن أجده في مثل هذا الوقت، فهو حتماً لا يزال  
 في الكلية". فسكت، واستدعى السجّان وقال "أعده إلى مكانه" فحمدتُ  
 الله أن صرفه عني، وكفاني شر الإيقاع بأخي.

### إذا وقع القدر عمي البصر:

بعد ساعات فتحو الباب ثانية واقتادوني خارج الفرع، وأركبوني سيارة  
 مع عناصر مسلحين.. انطلقنا.. ثم قال قائد الدورية: "دلّنا على بيتكم!".  
 بدأت تدور الأفكار برأسي بسرعة، وكان عليّ أن أتخذ قراراً سريعاً، ماذا  
 أفعل؟ يريدونني أن أقودهم بنفسي إلى أخي ليرموا به إلى التهلكة، ما هذا  
 الاختبار يا إلهي؟.

فكرتُ أن الرفض في هذا الموقف مستحيل وسيكون بعده ما لا يحمد  
 عقباه، فرأيت أن الحيلة أنسب الحلول.

قررتُ أن أرشدهم إلى بيت جدتي بدل بيتنا، وسأدعي أنه مقيم عند  
 جدته، وبالطبع لن يجدوه هناك، وعسى جدتي أن تفهم اللعبة ولا تخبرهم  
 بأنه ليس مقيماً عندها لأنها ستكون حينها ورطة كبيرة لي، نعم سوف  
 يكتشفون كذبتني، ولكن المهم أن لا يقبضوا على حسام ثم ليكن بعدها ما  
 يكون وسلمت أمري إلى الله!

أرشدتهم إلى بيت الجدة، كانت سيارة أبي - والتي هي بحوزة حسام  
 وقتها- مركونة عند مدخل البناء.

لم أشاهد السيارة بتاتا، ولو شاهدتها لربما كان أمرٌ آخر، ولكن إذا وقع القدر عَمِيَّ البصر.. وليقضِيَّ الله أمرا كان مفعولا.

اكتشفتُ أنه كان معنا سيارات أخرى من المخابرات ممتلئة بالعناصر المدججين بالسلاح، وكأنهم ذاهبون إلى اقتحام قلعة، وكانوا يتكلمون مع بعضهم باللاسلكي، ثم قال أحدهم متحدثا باللاسلكي مبشرا رئيسه: "لقد قبضنا على الهدف سيدي"!

نعم قبضوا عليه.. لأجل القدر العجيب كان حسام عند جدته، كان هذا أسوأ يوم في حياتي.. ولا أزال إلى يومي هذا ألوم نفسي.

وقبل المضي في قصتي هذه لا بد من إلقاء الضوء وبشكل مختصر على أهم الأحداث التي حصلت في سوريا، والتداعيات التي فجّرت الوضع، وأوصلتنا إلى ما وصلنا إليه.

### بداية الشرر

حوادث سوريا الدامية بدأت منذ ثورة ٨ أقدار ١٩٦٣ وتولي البعثيين السلطة في سوريا، ثم تتابع الانقلابات فيما بينهم، تخللها صعود حافظ الوحش في السلم السياسي (هذا اسمه الحقيقي وليس تهكما.. إذ تذكر المراجع التاريخية أن أباه سليمان كان شرس الطباع فأطلق عليه اسم سليمان الوحش، فعُرفَتْ عائلته ببيت الوحش، وقد أثبت التاريخ أنه اسم على مسمى) وصولا إلى مركز وزير دفاع ثم استيلائه على رئاسة الجمهورية عام ١٩٧٠.

وأنقل عن الويكيبيديا، الموسوعة الحرة هذا النص.

«بعد أن استولى حزب البعث على السلطة في انقلاب ثورة الثامن من آذار، أعيد حافظ إلى الخدمة من قبل صديقه ورفيقه في اللجنة العسكرية مدير إدارة شؤون الضباط آنذاك المقدم صلاح جديد، وركي بعدها عام ١٩٦٤ من رتبة رائد إلى رتبة لواء دفعة واحدة، وعين قائدًا للقوى الجوية والدفاع الجوي.

وتمكن في ١٦ نوفمبر ١٩٧٠ من الانقلاب على صلاح جديد ورئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي وسجَّههما مع العديد من رفاقهم وذلك فيما يعرف بـ « الحركة التصحيحية»، لُيُثِّبَت في ١٢ آذار / مارس ١٩٧١ رئيسًا للجمهورية العربية السورية لمدة سبع سنوات بعد إجراء استفتاء شعبي وليكون بذلك أول رئيس علوي في التاريخ السوري.»

### حوادث الدستور:

عام ١٩٧١، تم تعديل الدستور في دقائق - كما حدث مع ابنه بشار- حتى يناسب مقاسه، فعدلت فيه مادتان:

- شرط المدة، إذ كانت مدة الرئاسة أربع سنوات فمُددت إلى سبعة.
- شرط الدين، إذ كان حافظ من الطائفة العلوية، وهو خلاف الدستور الذي ينص على وجوب كون الرئيس سنيا.

شاعت الأخبار يومذاك أنَّ حافظاً أصبح سنيا، ونطق بالشهادتين، وأدى فريضة الحج، وقام الإعلام السوري (المعروف بكذبه منذ ذلك الحين) بعرض أدائه لمناسك الحج.. وزاد في النغم طنبورا، فئة علماء السلطان الذين كانوا يُشيدون بإيمان المقبور ويشهدون له بالتقوى والصلاح، وتراهم في الأعياد

الإسلامية يتباهون بصحبة ذلك الزنديق، فكان مفتي الجمهورية آنذاك، أحمد كفتارو، يظهر في كل عيد وهو يتأبط ذراع حافظ، ويقول في خُطْبِهِ: "يقولون عن الرئيس ليس بمؤمن... العما ضربهون ما شافوه عم يصلي!". نعم.. هكذا كان حافظ من مكرهٍ ودهائه يُبدي اهتماما بالطقوس والمناسبات الإسلامية، لِيُخفي وراءها عداوته الكامنة في قلبه تجاه الإسلام وأهله، ويرتكب جرائمه في صمت.. وهكذا فعل الجرو اللاحق من بعده، وهذا حال المللِ الباطنية ذاتِ الوجهين.



بعد تولي حافظ السلطة، بدأت الملاحقات البوليسية والاعتقالات، وبدأ الشكل الإرهابي لدولة البعث يتبلور، وكان من أحد المواقف التي أثَّرت في نفسي، اعتقال أستاذنا الرياضيات أثناء إعطائه الحصة لنا، وسحبه من

الصف أمام أعين طلابه .

بعد تعديل الدستور قامت مظاهرات تهتف ضد النظام وحزب البعث،  
عرفت بأحداث الدستور .

في أحد الأيام سمعت أصوات هتافات بعيدة فخرجت من البيت، ودفعني  
الفضول أن أتابع مصدر الأصوات إلى أن وصلت إليها .

كانت تلك الجلبة في حي «الصليبية» وهو من الأحياء الشعبية في اللاذقية،  
وكان المتظاهرون أولادا من طلبة المدارس ومعظمهم لا يتعدى العاشرة  
من عمره، كنت أراقب.. حين برز جندي مدجج فجأة، يلبس خوذة ويحمل  
رشاشا ويتقدم باتجاهنا ويفتح النار!

بلمح البصر تفرق الجميع واختفوا من الطريق، أما انا فقد هرعت إلى  
أقرب محل واستندتُ إلى جداره، والتصقت بزاوية الحائط.. مالبتُ أن أقبل  
بعدي شاب آخر، ووقف ملاصقا لي مباشرة على نفس الجدار، ولكنه لم  
يكن محميا، لاني كنت أنا على الزاوية وكان هو بعدي.. أي كان مكشوبا من  
جهة العسكري الذي يطلق النار،.. نظر إلي وابتسم، ولكنها كانت الابتسامة  
الأخيرة... وفجأة بعد ثوانٍ رأيتَه ممدداً على الأرض، منقلبا على ظهره  
وبركةً من الدم حول رأسه... للوهلة الاولى لم أدري ماذا حدث، بقيتُ متمسرا  
مكاني أراقبه... شاهدتُ ثقب الرصاصة في جبينه والدم يتدفق منه...  
كان العسكري المجرم لا يزال يتقدم باتجاهي، ولم يبقَ بيني وبينه إلا أمتارٌ  
معدودة، وأيقنتُ أنني هالك لا محالة... وإذ بعسكري آخر يهرول إليه مسرعا  
ويجذبه من كتفه مشيرا إليه بالعودة.. ليكتب الله لي النجاة من قتل محتم.

وقع حينها عدد من الشهداء.

حدثَ أنه في تشييع أحد الشهداء ربما ذلك الشاب أو غيره، أُطلق الرصاص على المشيعين، فرموا التابوت وتفرقوا.. لاحظوا كيف أن التاريخ يعيد نفسه! (إطلاق النار على الجنازات).

### أبي والاستعمار الفرنسي

قبل المضي في مذكراتي أنقل مقتطفات من مذكرات والدي -رحمه الله- لمقارنة الحكم الفرنسي مع الحكم النصيري من جانب، وليبيان صراع أبي مع حزب البعث والسلطة النصيرية وماكان له من أثر كبير في التحامل علي وعلى أخي في التحقيق والمحاكمة، فقد انتقموا منه عبر أولاده.

ينحدر أبي من عائلة عسكرية فقد كان جده حاكما (قائم مقام) لبيروت واستقبل "غليوم" امبراطور المانيا عام ١٨٨٩ فيها، وكان والده (جدي) ضابطا مرموقا في الجيش العثماني وكان واليا على مرسين، وتشاء الأقدار أن يتوفى جدي باكرا في دمشق ويترك زوجة وولدين.

ولد أبي في دوما وبدأ بداية صعبة في حياته، فقد نشأ يتيما، وجاهد كثيرا في مسالك الحياة، وانتقل في سنوات المدرسة إلى دمشق حيث عايش فترة الاستعمار الفرنسي، التي ألهمت شعوره وحماسه ضد الظالمين، وكثيرا ما كان يروي لنا قصص صراع الشعب السوري مع المستعمر الفرنسي، وكيف كانوا يرددون في مظاهراتهم النشيد الوطني العريق:

ينقص الكون شباب مهتدي

يا شباب العالم المحمدي

دين عقل وضمير وريد

فأروهم دينكم كي يهتدي

كانت مدرسة التجهيز في دمشق مركز انطلاق المظاهرات، ولم يحصل في عهد الاستعمار الفرنسي ان اقتحم الجنود الفرنسيون المدرسة لما لها من تقدير واحترام، بل كانت حين تمر الجنازة أمام الجندي الفرنسي، يقف باستعداد ويرفع قبعته احتراماً للميت..

### أنقل كفاح أبي ضد الفرنسيين كما كتبها في مذكراته:

عام ١٩٤٢-١٩٤٣: إضراب التجهيز في ذلك العصر كان يعني إطلاق شرارة الإضرابات والمظاهرات في كل سورية، حيث كانت هذه المدرسة تضم المئات من الطلاب الشباب وتجسد الكفاح الوطني وتقوده، في الوقت الذي لم يكن للجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) أي دور نظراً لضآلة حجمها وقلة عدد طلابها.

العام الذي كنتُ فيه في الصف السادس كان حافلاً، ففي إحدى المرات خرجنا بمظاهرة صاخبة فإذا بالشوارع المحيطة بالمدرسة مطوقة برجال الأمن للحيلولة دون وصولنا إلى مركز المدينة.. كان من الطبيعي أن تتشب معركة بيننا وبين الدرك الذين كانوا يسدون الطريق مابين حديقة البرلمان وبناية «كسم وقباني». كان سلاح الطلبة الحجارة التي مصدرها الأراضي الزراعية المحيطة بالمدرسة. أما الدرك فكانوا بهراواتهم وخوذاتهم الحديدية. كنت في ذلك العمر مشتتلاً حماساً، وكنت أعشق المواجهات النضالية، وكنت أعددتُ لمثل هذه المواجهات بالسُرِّ عن والدتي «مقلاًعاً» لقفد الأحجار. وكانت والدتي تخاف عليَّ لأنني أنا اليتيم الفقير كنتُ كبيرَ أولادها وأملها.. وهكذا ولأول مرة في حياتي شاركتُ في معركة بالأحجار ضد

الدرك باستعمال مقلاعي، وقد أبلت بلاء حسناً.

كانت المعركة طويلة واستمرت ساعات وأخيراً اضطررنا للتراجع نحو المدرسة، فكنا نتقهقر مع استمرارنا في المحاجرة، وكانت عناصر من الشرطة تلاحقنا، وكنت من أواخر الطلبة الداخلين إلى حرم المدرسة، وكان أحد الطلبة الكبار «فوزي» يقوم بسحبنا بسرعة إلى الداخل خوفاً علينا ثم أغلق الباب.. وما أن أغلق الباب خلفنا حتى دوت طلقات نارية من الخارج، وإذ بالدماء تسيل تحت الباب مُخْلِفةً الطالب الشهيم «فوزي اللحام» شهيداً ليلتحق بقوافل الشهداء التي لم ولن تتوقف على مر الأيام.

كان مقتل طالب على أيدي رجال سلطة المستعمر حدثاً كبيراً يهزُّ سورية.. شُيِّع الشهيد بجنائز ضخمة تحولت إلى مظاهرة طافت شوارع دمشق، والتهافتات تشق عنان السماء بسقوط الاستعمار وبتريد: لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله. (لم يطلق أحد النار على الجنائز.. عجيب! هذا في عهد فرنسا).

### فوزي القاوقجي برواية أبي - رحمه الله -:

من الضباط الذين كانوا في الجيش الفرنسي، ثم التحق برجال الثورة ضد فرنسا وأصبح فيما بعد من أعظم المجاهدين. قاتل في سورية وحُكِمَ عليه بالإعدام من قبل الفرنسيين، وقاتل في فلسطين وحكم عليه بالإعدام من قبل السلطات البريطانية.. وبينما كان في طريقه إلى العراق لاحقته طائرة إنكليزية وفتحت النار عليه.. فغطاه رفاقة المخلصون بأجسادهم وأصيب بعدة رصاصات استقرت في جسده وبقيت فيه بقية حياته، واستمر

في جهاده حتى أول هزيمة للجيش العربي في عام النكبة ١٩٤٨ .  
في السبعينات روى لي قبطان سفينة إيطالية أنه كان في إسرائيل،  
وسمع هناك بوفاة جنرال عربي (لم يحفظ الإيطالي اسمه)، واحتفل اليهود  
بالرقص في الشوارع فرحاً بموته، فعلمت أنه القاوقجي بعد ما سمعت في  
الأنباء نبأ متواضعاً عن وفاته.

هذا الذي جاهد طيلة حياته للقضايا العربية وطَبَّقَتْ شهرته الآفاق  
وسمَّته الجماهير في دمشق الأسد المغوار، ومات فقيراً وفي جسده رصاصٌ  
صليبي، لم يعد يذكره أحد، ومعظم الأجيال الحالية تجهله، بينما تُدرَّسُ  
أسطورة جول جمال في المدارس، وما هي إلا كذبةٌ من نسيج الخيال،  
ابتدعها صديقي كاظم زيتونه سامحه الله لكسب قلوب مسيحيي الساحل  
أيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦. كتبتُ خطاباً إلى رابطة المحاربين  
القدماء للاتصال بالمحافظة من أجل تخليد اسمه في شارعٍ أو ساحةٍ وقلت  
إن من العار أن ينسى هذا البطل، وقد علقتُ صورة له في الرابطة.

### أبي وحكم البعث

كان أبي متفوقاً في دراسته رغم فقره، واستطاع أن يحقق نجاحات جيدة  
في الحياة، والتحقَ بالسلك العسكري واندرج في عدة دورات عسكرية في  
فرنسا وموسكو والقاهرة، وحصل على درجة أركان حرب، وترفع إلى رتبة  
عقيد واستلم قيادة القوات البحرية في سوريا عام ١٩٦٢. لم تدم قيادته  
طويلاً إذ حدثت ثورة آذار بقيادة حزب البعث عام ١٩٦٣، ثم أُرسِلَ في مهمة  
إلى العراق بهدف إبعاده، وصدر أمر تسريحه وهو في العراق، خوفاً من أن

يُحَدِّثُ تَمَرِّدًا أَوْ بَلْبَلَةً فِي صَفُوفِ الْجَيْشِ.

لم تستطع الدولة البعثية المهلهلة أن تستغني عن خبرته وعلمه رغم كراهيتهم له، فاستعانوا به مرة أخرى عام ١٩٨٠ وعيّنوه مديرا عاما للموائى السورية. منصبه هذا (مدير عام) عرّضه للاصطدام مع كبار المتنفذين الفاسدين في البلد، من أجل تمرير صفقاتهم، وكذلك فإن ميوله الإسلامية أثارت حفيظة جهاز الأمن.

في أحد المواقف اتصل به جميل أسد (شقيق الرئيس المجرم) من أجل تمرير صفقة ودخل معه في جدال، ثم قال مستكرا: (كل من يستلم مركز في هذه الدولة يقول أنا ربكم الأعلى؟) فقال له والدي: «إن كنت تقصدني، فأنا آسف أن أسمع هذا الكلام من عضو مجلس شعب، وإنما أنا أنفذ القوانين التي تضعونها أنتم».. وانتهت المحادثة بقول جميل: «إذا بدك توقّف بوجهنا من هلق ورايح رح تشوف».

بعد أيام وصلت برقية من نائب رئيس مجلس الوزراء لشؤون الخدمات آنذاك فهمي اليوسفي إلى أبي تنصّ على تمرير معاملة جميل أسد!  
يقول أبي في مذكراته:

لاحظتُ أنه لا يوجد في المديرية مكان للصلاة فخصصتُ غرفة لذلك. في اليوم التالي مباشرة صباحا (لاحظوا سرعة ردّ الفعل) رن جرس الهاتف وكان المتكلم رئيس فرع المخابرات في اللاذقية -واسمه عدنان بلول- وبعد تحية صباح الخير باستعلاء، قال: ما هذا المسجد الذي يقام في مديريتكم؟ فقلت أتمنى أن يكون مسجداً، وما هو إلا غرفة يصلي بها من يريد الصلاة بدل أن يصلي الموظفون في مكاتبهم... فقال في هذه الحالة يجب

أن يكون للمسيحيين كنيسة، فقلت وليكن ذلك، فقال: لا هذا لن يكون، فسألته: بأي صفة تتكلم؟ فقال بصفتي المسؤول الأمني في المحافظة، فقلت له: إن لك أحد ثلاثة طرق للاتصال معي، إما عن طريق رئاسة الأركان العامة، أو عن طريق وزير النقل، أو عن طريق المحافظ، فانفجر غاضباً وصاح: (أقسم بالله لأزعجك في عقر دارك) وأطبق الهاتف.

بعد دقائق اتصل بي رئيس المخابرات العامة علي دوبا من دمشق، وقال لي بلهجة ودية: لقد رحبنا باستلامك هذه الوظيفة ولكن رئيس الفرع أعلمنا أنك تضع العراقيل في طريق عمله.. فقلت له: الذي وصلك مبالغٌ فيه، وبعد يومين لديّ عمل في دمشق فإن شئت نلتقي وسأشرح لك الأمر، فقال: أتمنى ذلك.

سافرتُ إلى دمشق وتوجهتُ إلى مقر علي دوبا قرب تمثال عدنان مالكي في المهاجرين حيث قادني حراس متتابعون إلى مكتبه، استقبلني بحرارة ولطف وفوجئت بنعومة شكله، وكرر الإعراب عن سروره بتسلمي الوظيفة، ثم دخل في الموضوع، وسأل ما قصة المسجد؟ فشرحت له الأمر، فاستغرب وقال: قال لي عدنان أنك اقتطعت قسماً من المكاتب وعملته مسجداً!

ثم رويتُ له ما تفوّه به من تهديدات وعقبتُ قائلاً: أظن أنني لما كنت قائداً للبحرية كان عدنان في المدرسة الابتدائية.

أثناء حديثي عن عدنان كان دوبا يدور في مقعده يُمنهً ويسره بعصبية وقال أرجو أن لاتكمل، لأنني أعرف أن عدنان مهذب ولا أكاد أصدق هذا عن عدنان. دارت بيننا عدة أحاديث، وكان من جملة ما قلتهُ له: أنا مسلم وأعتز

بإسلامي، ولا أخشى إلا الله. فعقَّب: إن الإسلام دين قيم. ووعدني بأن الأمور ستكون على ما يرام، ولما نهضتُ مودعاً نهض ورافقني إلى الباب الخارجي. بعد عودتي إلى اللاذقية وجدت على طاولة المكتب ورقة كتب عليها: سيادة العقيد، صباح الخير، حضرت ولم أجدكم، موقَّعة من عدنان بلول. فعرفت أنه تلقى ما يلزم للاعتذار وكأنما تقصَّد أن أكون غائبا عند حضوره. هنا انتهت رواية أبي.

هذه الصدمات كان لها أثر سلبي لاحقا، في التحامل علي في التحقيق والمحاكمة، وقد حمل جميل الأسد حقه طويلا.. فبعد سنوات أمر بمداهمة بيتنا، واقتحموه كالكلاب المسعورة، وهم يصيحون «أين العقيد؟».. ولحسن الحظ كان أبي غائبا.

كان والدي من جملة الناس العاديين غير الملتزمين بالإسلام ولكنه كان يمتلك الحمية والغيرة على دين الله، ولطالما كان يحلم بالجهاد في فلسطين والجزائر، وكان كثيرَ القراءة والمطالعة، واسعَ العلوم، ففتح الله قلبه إلى الهداية حين أرادنا أن نلتزم بالصلاة (أنا وإخوتي) فلم يَرُبِّدًا من أن يبدأ بنفسه، فكيف له أن يأمرنا بالصلاة وهو لا يصلي، وهذا ما كان، وظل يلاحقنا حتى صارت الصلاة جزءا من حياتنا، فكانت صلواته من جملة الأمور التي فاقمت النقمة علينا.

كذلك أمي، فقد شرح الله قلبها للإيمان وارتدت الحجاب، وكانت من النساء المتميزات بحسن خطابها وكرمها وتواضعها وحبها للمساكين، ومحط أنظار النساء في البلد، وكانت محبوبية في محيطها.

## مروان حديد

أنقل مما جاء عنه في ويكيبيديا، الموسوعة الحرة:

هو مؤسس وقائد حركة الطليعة في سوريا، عُرفَ بين الأخوان بأنه من أكثرهم تمسكا بالدعوة إلى الإسلام وتعاليمه، ومخلصٌ وفِيٌّ ومُحِبٌّ لإخوانه، وارتكز عمله على جامع النوري الشهير في حماة، وكان زاهداً في الدنيا مستغرقاً في الآخرة، وكان كثير الصلاة والبكاء والدعاء في خلواته. سافر مروان إلى مصر ودرس فيها، والتقى بتلاميذ الشيخ حسن البنا الذي طالما أحبه ولم يعرفه، والتقى بسيد قطب وإخوانه، ونشِطَ كثيراً في الدعوة ونصرتها.

وكان لمحنة الإخوان واضطهادهم وإعدامهم في مصر بالغ الأثر وأعَمَقَه في قلبه وحسه المرهف، وكان عبد الناصر يومها زعيمَ العرب وبطلهم، ولكنه في الداخل كان جلاذَ مصر ومرعَبَها.

خرج الطلاب في مدينة حماة عام ١٩٦٤ في مظاهرة احتجاجاً على اعتقال أحد الطلاب الذي كتب على السبورة آية قرآنية وهي: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون).. ودارت مصادمات بين الطلبة الإسلاميين والبعثيين، وطالبَ الطلاب في مظاهرتهم مدينة حماة بالإضراب فاستجاب التجَّار وأبناء الشعب وأغلقوا محلاتهم، وتدخل الجيش لرفع حالة الإضراب، وتفاجأ الجميع بقصف المسجد بالمدفعية والدبابات بقيادة العقيد الدرزي حمد عبيد قائد قوَّات المغاوير، والعقيد الدرزي سليم حاطوم ومن ورائهم حافظ أسد وصلاح جديد وعزت جديد ودارت

اشتباكات بين الجانبين انتهت باستشهاد أربعة من المعتصمين.

حاصر الجنود الشيخ مروان داخل المسجد ودخلوا عليه وكبّلوه وانهاّلوا عليه ضرباً بكل ما وصلت إليه أيديهم من أدوات، ثم حملوه في دابة إلى مبنى دار الحكومة (السرايا) حيث كان الرئيس أمين الحافظ موجوداً ومعه مجموعة من الضباط الآخرين.

وكان معروفاً عن أمين الحافظ بأنه بذيءٌ وفاحش اللسان، فعندما رأى الشيخ مروان شتمه وسبّه.

- فقال له مروان: لَتَكُنَّ خَصُومَتُكَ شَرِيفَةً يَا أَمِين.

عندها تدخل المقدم النصيري عزت جديد وأمسك بلحية الشيخ مروان، وقال له:

- هذه المكنتسة لا أريد أن أراها ثانيةً.

فزجره مروان وضربه ضربةً قويّةً برجله أسقطته من فوق درج مبنى السرايا إلى الأرض.

أقيمت محكمة عسكرية برئاسة مصطفى طلاس في حمص قُدِّمَ إليها مروان وإخوانه من المعتقلين، ودار حوار جريء بينه وبين قاضيه مصطفى طلاس في الجلسات التي كانت علنية وتُنقَلُ على الهواء مباشرةً جاء فيه ما يلي:

قال طلاس للشيخ مروان: أنت عميل.

- أنا عميلٌ لله.

قال طلاس: أنت مأجور.

- أنا مأجورٌ من الله .
- قال طلّاس: حكمتُ عليك المحكمة بالإعدام شنقاً حتى الموت .
- فرد مروان بابتسامة ساخرة: والله يا مسكين لو عرفتُ أنّ بيدك الموت والحياة لعبدتُكَ من دون الله .
- فضجت الصّالة بالتصفيق الحاد والصراخ والاستهزاء بالمحكمة، فقاموا فوراً بقطع الكهرباء عن صالة المحكمة، وتم إيقاف البث الإذاعي المباشر .
- وحكم عليه بالإعدام في محكمة سورية، ولكن الحكم لم يُنفذ وأُطلق سراح مروان والمسجونين بعد تدخل الشيخ محمد الحامد وعلماء حماة عند رئيس الجمهورية أمين الحافظ آنذاك .
- وشاء الله لمروان أن يختفي بعد هذه المرحلة وأن يعمل بالخفاء، وتقلّل بين عدة بيوت لمدة سنتين ونصف تقريباً في دمشق، إلى أن داهمته قوة المخابرات في صبيحة يوم ٣٠ حزيران ١٩٧٥ واعتقل بعد مقاومة مسلحة استمرت لساعاتٍ عديدة .
- لم يكن هناك محاكمةٌ سرّيةٌ أو علنيةٌ لمروان وإنما كان التحقيق المعروف لدى رجال المباحث والمختصين بشؤون التعذيب والتصفية الجسدية، فكانوا يُسمعونهُ أصواتاً كصوت زوجته وهي تعذبُ وكأنما يُرادُ اغتصابها حتى أنهكوه .
- تعرض مروان للتعذيب بالأضواء المبهّرة، وكان أحسّ ما اتبعوه معه هو كشف عورته بقصد الإذلال، ثم قطعوا عنه الطعام وأجاعوه حتى خارت قواه، وأحياناً كانوا يقدمون له الطعام بعد أن يمزجوه أمام ناظريه بالأقذار، فصار يأبى أن يأكل منه .

مروان صاحب الطول الفارع والجسد الممتلئ والقبضة الحديدية... ظل صامدا وصلبا في التحقيق وصار أخيراً أقرب إلى الهيكل العظمي منه إلى الجسد العادي، وكان يغيب عن الوعي لفترات متقطعة ويصحو، وقُبيل موته قال لمن حوله: (انقلوا عني أن هؤلاء الكلاب «يعني المحققين» لم يحصلوا مني على كلمة واحدة تُشفي صدورهم).

توفى في سجن المزة العسكري عام ١٩٧٦ ويقال بأنه أعطي حقنة سامة في عنقه، ولم يُسمح لأهله بدفنه في حماة، فُدِنَ في دمشق في مقبرة الباب الصغير تحت حراسة الأمن المشددة.

### حُمَى الاغتيالات والاعتقالات

كان استشهاد مروان الشرارة الرئيسية التي فجّرت الأوضاع في سورية، فبدأت ملاحقة أتباعه، الذين أعلنوا الجهاد المسلّح ضدّ الحكم النصيري، وشكلوا الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، ووجهوا عدة ضربات موجعة إلى النظام، وتمكّنوا من اغتيال شخصيات كبيرة في الحكم، وأدخلوا الرعب في نفوس كبار المسؤولين حتى هرب كثير منهم خارج البلاد، وأصبح حافظ يخرج على الناس عبر التلفزيون في خطابات هستيرية أطلق عليها الناس تهكّماً اسم "مسلسل هذا الرجل في خطر"، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من رأس حافظ اللعين، ففي عام ١٩٨٠ حاولوا اغتياله في القصر الجمهوري أثناء استقباله لرئيس دولة مالي، ولاذ الحرس المرافق له بالفرار، وكان تحت المرمى، لكنّ مرافقه انكبّ عليه وأحاطه بجسمه وهلك بدلا عنه، وظنّ الشباب المهاجمون أنهم قتلوه فانصرفوا، وهكذا -وليقضي

الله أمرا كان مفعولا- نجا بأعجوبة، وبدأ عملية انتقام دموية استمرت سنين طويلة ولنصل إلى مانحن عليه الآن.

بعد يومين من محاولة الاغتيال نُفِذت مجزرة سجن تدمر الشهيرة بقيادة رفعت الأسد قائد سرايا الدفاع، وبدأت حملة ملاحقات واعتقالات واسعة طالت شريحة كبيرة من الناس خاصة من المتدينين والمعارضين السياسيين وكل من له شبهة ولو من طرف بعيد بأحد من المطلوبين، وصدر المرسوم ٤٩ الشهير الذي نصَّ على عقوبة الإعدام لكل من ينتسب إلى حزب الإخوان المسلمين، وصار هذا المرسوم الذريعة القانونية لملاحقة الناس وتنفيذ الإعدامات بهم. استغل المخابرات حالة الفوضى الأمنية في البلاد، فصاروا يختارون العناصر الإسلامية في كل منطقة، أو اساتذة الجامعة، أو الشخصيات المعروفة ذات الإتجاه الديني، ويقومون باغتيالهم بطرق وحشية وهمجية. ففي مدينة اللاذقية اختطفوا الأستاذ ممدوح شولحة، الخطيب المميز، من بيته، وعُثر عليه بعد يومين في ضواحي المدينة مقتولا بضربةٍ بالبلطيةٍ على رأسه.

كذلك الشيخ العالم عبد الستار عيروط، اختُطفَ من بيته، ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

داهموا بيت الشيخ عمر زهر الفول، ولكنه لم يكن في بيته وهرب إلى لبنان وكتب الله له النجاة.

بعد اعتقاله بفترة أشهر، داهمت قوات تابعة لجميل الأسد بيتنا بحثا عن أبي ولكنهم لم يجدوه، ولو أنهم ظفروا به للقي نفس المصير، ولا سيما

أنه كان هناك حقد شخصي عليه من قبل جميل الأسد كما أسلفت. كانت هذه الحقبة من أشد الفترات توترا وإرهابا التي مرت بها سورية، وكان الحكم البعثي في خطر حقيقي، فكان في أشرس أوقاته، وكانت الاعتقالات في أوجها، ولأتفه الأسباب، وهنا أورد هذه القصة:

أ.ج. أحد أصدقائي كان يعمل في مكتب عقاري. مرَّ لعنده صديق له اسمه "عبد الحليم" وسلَّم عليه في المكتب، ودار بينهما حديث عادي:

- أ.ج. : «شو الأخبار؟»

- عبد الحليم: اعتقلوا فلانا.

- أ.ج. : الله يسترنا.

بعد فترة يسيرة اعتقل عبد الحليم، وكان مصابا بمرض في القلب، فخاف من التحقيق وسرد كل شاردة وواردة.. وروى ما كان من حوارهِ مع أ.ج. انطلقت دورية مخابرات وأحضرت أ.ج. لأنه قال "الله يسترنا"، وقالوا له لو لم تكن مذنبا لما قلت (الله يسترنا)، وكلفته كلمة "الله يسترنا" خمسة عشر عاما في السجن.

\* مجموعة أخرى من الشباب الدمشقي:

زاروا أحد الأشخاص وشربوا عنده الشاي، وبعد فترة اعتقل هذا الشخص، واعترف تحت التعذيب أن هؤلاء الشباب زاروه في بيته وشربوا عنده الشاي، فأحضرهم جميعا، وانتهى بهم المطاف في سجن تدمر والتقيت بهم هناك، وكانت جريمتهم أنهم شربوا الشاي عند فلان!

\* هشام شريجي:

أيمن شريجي كان على رأس قائمة المطلوبين للنظام البعثي، ولمَّا لم يتمكنوا منه، اعتقلوا أخاه هشام، الذي لم تكن له تهمة سوى أنه شقيقُ لأيمن (رهينة).

التقيتُ هشام في تدمر وكان صديقا ودودا وذا علمٍ شرعي وحَسَنَ المعشر، وأصيب بنوباتٍ قلبية متكررة أثناء مرافقتي له في السجن، وأخلي سبيله بعد خمسة عشر عاما من سجنه، وتوفي -رحمه الله- بعد عام واحد من إخلاء سبيله.

### البرتقالة

رؤى لي حسام فيما بعد، أنه سأل عني في المشفى وعلم الخبر بأنهم اعتقلوني في ذلك الصباح، وضاق به الأمر وأصابه الغمُّ الشديد، وقال لأحد أصدقائه: "اليوم فقدتُ أقربَ أصحابي".

لم يردَّ إزعاج أهلي وتوتيرهم، وظن أنه ربما لا يطول توقيفي وأعود سريعا فتكّتم على الأمر ولم يخبر أحدا.. وفي المساء خطر على باله أن يزور جدته، وذهب إليها وهو مهموم مغموم ولم يخبرها بما حدث لي، ولم يُطل مقامه عندها.

همَّ حسام أن يغادر بيت جدته، فاستوقفته الجدة وقشرت له برتقالة ودَعَتْهُ لأكلها!

كان حسام في ضيق شديد ولا يرغب في الطعام.. أصرتُ الجدة.. جلس بضعة دقائق وأكل البرتقالة.. هذه الدقائق كانت كافية لأن تصلَ سيارة الأمن التي كنت أنا فيها إلى الحي وتدرّكه قبل خروجه من بيت الجدة.

ودّع جدته ونزل الدرج.. ليلاقي جنود البغي ينزلون من سياراتهم وكأنه على موعد معهم.. فيا سبحان الله، ما أعجب تدبيره ”ولو تواعدتم لاختلتم في الميعاد“!

أنقل قصة اعتقالني أنا وأخي كما كتبها أبي - رحمه الله وأحسن إليه- في مذكراته وسماها المصاب الأعظم، أنقل لكم معاناته كما عاشها، وأسأل الله أن يكتبها له في صحيفة حسناته:

المصاب الأعظم:

كنت في سفر فاتصلت بابني المرحوم حسام وطلبت منه أن يأتي بسيارتي الخاصة إلى الكراج وينتظر وصولي. وصلت الكراج فلم أجد السيارة ولا حسام، فقلت في نفسي لعله أخطأ في حساب توقيت الوصول، فانتظرتُ، وطال الانتظار، وبعد أن يئست استأجرت تاكسي وانطلقت إلى بيتي وكنت أفكر ما عساه يكون السبب، فغلب على ظني أن مخالفة وقعت وتم توقيف السيارة من قبل الشرطة أو لعله قد حصل حادث اصطدام مع سيارة أخرى، وهكذا كان القلق يساورني إلى أن وصلت البيت ولم أجد أحداً في البيت.

لم يمض سوى وقت قصير على وصولي حتى قرع الجرس، ففتحت الباب ففوجئت بوالدتي ووجهها غارق في بحر من الدموع وهي تبكي بكاءً مرأً، فسقط قلبي من بين ضلوعي وسألتها ما الأمر؟ فأجابت بصوت متهدج والصوت يختنق في حنجرتها: حسام.. حسام..

- ما له يا أمي حسام...

- لقد أخذوه

- من أخذه ؟

- المخابرات .. ألقوا القبض عليه .

أحسست بدوار... بل أحسست أن الدنيا تدور حولي .

أراد حسام قبل أن يتوجه إلى الكراج أن يمر لعند جدته ليزورها، ويبدو أن كلاب المخابرات كانوا يرصدون تحركاته، فلما وصل دار جدته حاصروا الحي وتركوه حتى ينزل من عندها وأخذوه.. كانت الاعتقالات قائمة على قدم وساق في كل أنحاء سورية ولم يكن باستطاعة أي إنسان أن يفعل شيئاً مهما كان مركزه فكل الأمور بيد هُبل وأنصاف الآلهة، كانت سيارتي متوقفة أمام بناية الجدة ومقفلة .

كان من عادة ابني أسامة أن يأتينا كل يوم ولم يأت ذلك اليوم فسألت عنه في مشفاه، فأجابوني غير موجود، فباشرتُ الاتصال مع كل الأقرباء فلم يكن عند أحد منهم، فعدت للاتصال بالمشفى، فردت عليّ إحدى زميلاتهِ بأنه خرج من المستشفى، فكررتُ السؤال بصيغة ثانية: هل خرج أم أخذه؟ أجابت: أخذه.. شعرت بصاعقة تخترق عظامي، وكان الانهيار .

يشهدُ الله أني كنت أتمنى لو أوضع على خشبة الإعدام مائة مرة على أن لا أرى أذى يقع لأولادي، لا أريد أن أتكلم عن الشجاعة فمواقفي كانت كثيرة ولله الحمد، ولكن بعد هذا المصاب شعرتُ أنني أصبحت جباناً، ليس خوفاً على حياتي بل خوفاً على من هم أعلى من حياتي .

لم أعد أذكر الطريقة التي علمتُ بها أم أسامة بالنبأ، كل الذي أذكره أننا كنا هي وأنا في ذهول . بعد أيام من الاعتقال اتصلت بي أم أسامة من البيت

وأعلمتني بوجود «زوار» في البيت لكي أحضر، ففهمت أن رجال المخابرات في البيت، فأسرعتُ إلى البيت فوجدت رجلين باللباس المدني علمت بأن أحدهما برتبة نقيب، فاستقبلاني بأدب وسألوني عما إذا كان في مكتبتي مجموعة «في ظلال القرآن» لسيد قطب، فسألتهم وهل حيازتها ممنوعة، وهل هناك قرار صادر بمنعها، فأخذوا المجموعة، واستعرضوا المكتبة ولما رأوا مجموعة «ضحى الإسلام» همُّوا بأخذ بعض أجزائها (لأن فيها كلمة إسلام) فتدخلت بحدة وقلت لهم هذه سلسلة كتب تاريخ فإذا أخذتم جزءاً واحداً أفسدتم المجموعة كلها، فكفُّوا عنها، ولما سألتهم عن الجهة التي أرسلتهم رفضوا الإجابة وقال كبيرهم «تعرف فيما بعد».

### التحقيق

لأحب أن أدخل في التفاصيل المؤلمة والمقرّزة التي عشتها في تلك الفترة ولا أحب تذكرها، فهي تشمل كل ما يخطر في البال، من ضرب بالسياط والدولاب وصفع ولكم على الوجه، والكهرباء في المناطق الحساسة، وتجويب، وتعطيش، والمنع من إخراجنا إلى التواليت، ولقد تعرّضنا إلى مواقف في غاية الإحراج، ودخولنا إلى المرحاض جماعة، وحشّرنا في الزنازين التي لم نكن نعرف فيها ليلنا من نهارنا.. وما تسمعونه يا سادتي في هذه الأيام من حقارات وسفالة النظام السوري ليس منكم ببعيد.

سألوني أسئلة كثيرة، ولكن السؤال الأول والذي أذكره جيداً: «من هم أفراد أسرتك؟».

استغربت السؤال، لماذا يسألونني عن أسرتي! طبعاً والديّ وإخوتي.

كانت تلك أول مرة أسمع فيها هذا التعبير (الأسرة)، وعندما لم أفهم السؤال، أعاده عليّ «أفراد أسرتك في تنظيم الإخوان المسلمين».. والحقيقة أن هذا التعبير أعجبني فيما بعد.. فتشبيه المجموعة التنظيمية بالأسرة من دواعي المحبة والإلفة بين الأفراد.. ثم أردف: «ومن أميرك؟».

أمير أيضا!.. كمان شيء لطيف.. أسرة وأمير!

وأجبتُ بعفوية «ليس لدي أسرة ولا أمير».. وهنا فُتِحَتْ أبواب اللهب.. إلى أن أنعشوا ذاكرتي بأساليبهم المقنعة، فتذكرتُ أسرتي وأميري! وكادوا يقنعونني أيضا بأنني من التنظيم المسلح بل على رأس التنظيم! واتهموني بأنني مراسل صحفي أعمل لصالح مجلة النذير التي كانت تصدر للإخوان في ذلك الوقت.

كانت قد مضت عليّ فترة طويلة بدون ماء أو طعام، وأحسست بالإنهاك والإعياء وبالجفاف الشديد في حلقي، حتى بُحَّ صوتي وأحسستُ أنني لم أعد حتى قادرا على الكلام، وأخيرا أحضروا لي إبريقا من الماء فتشبثتُ به بكلتا يديّ وشربتهُ كلَّه دفعة واحدة!.

وضعوا على الأرض صحناً وسخاً ملتويّاً من الأرز وقِدراً كبيراً (نسميه طنجرة) من المرق، وقالوا كُلْ.. كيف أكل؟ أرز ومرق؟ فالتفتُ إلى السجنان وقلتُ له: «أريد ملعقة».. وماكدت أتلفظ بكلمتي حتى رأيتُهُ يجري نحوي كالكلب المسعور ويضربُ الأرض بقدميه كالثور الهائج ويصيح: «كُلْ ولاه».. فجعلتُ أغرف الأرز بأصابعي وأحمل القدر الكبير كله لأشرب منه المرق. وضعوني بادئ الأمر في زنزانة طولها متران وعرضها متر واحد، ليس

فيها ضوء ولا ماء ولا دورة مياه طبعاً، أشبه بمستودع للبضاعة، وبعد فترة وضعوا معي أخاً آخر - أبو سعيد- وتبادلنا حفظ القرآن فحفظتُ منه سورة الكهف، وحَقَّقْتُهُ سورة مريم، وبقيت فيها خمسة وأربعين يوماً، ثم نقلوني إلى غرفة جماعية صغيرة مكتظة اسمها الحَمَّامُ!.

أحد المساجين دق باب الزنزانة.. أقبل السجان إليه وسأله لماذا يدق الباب، فأجابه أنه يريد الخروج إلى دورة المياه، وهنا كانت المصيبة.. ففتح الباب وبدأ الركل والصفع والضرب مع الشتائم المتدفقة ثم أغلق الباب، ولم يخرجهُ إلى الدورة... بعد ذلك لم يعد يجرؤ أحد على دق الباب، وإذا اشتد به المخاض قد يقضي حاجته في كيس نايلون، هذا إذا كان حظه جيداً ولديه كيس نايلون، ثم يفرغه في التواليت ويرجعه معه إلى الزنزانة فقد يلزمه مرة أخرى!.

في إحدى المرات استُدعيتُ للتحقيق، ولم أكن أشعر بالوقت من توتر الأعصاب، ولكن أصدقائي أخبروني أنني غبتُ ٦ ساعات، كنت واقفاً طيلة الوقت، ويدي مقيدتان خلف ظهري، وأتلقى الصفع واللكمات على وجهي والسياط على جميع أنحاء جسمي، ثم تركني المحقق حوالي الساعة، لم أدر أين ذهب (ربما ذهب يتعشى) وأنا على هذه الحالة ثم عاد بعد أن استعاد نشاطه ودخّن سيجارته، وأكمل استجوابه، ولما عدتُ إلى المهجع كان وجهي أشبه بالكرة المنفوخة (إذ أنني شاهدت نفسي في المرآة صدفة أثناء خروجنا إلى الحمام، فكدت لا أعرف نفسي.. فوجهي شديد الانتفاخ، وعياني تكاد تختفيان من شدة التورم، وملامح وجهي متبدلة بشكل مخيف وجسمي مزرَّقٌ

بالكامل، ولما بَوَّلْتُ (عدم المؤاخظة).. كان البول دماً شديداً الحمرة.  
 كان من أسوأ وأصعبِ المواقف في التحقيق عندما سألوني عن نشاطات والدتي، ثم قال المحقق « أُمَّكَ رئيسة التنظيم النسائي وسوف نحضرها إلى هنا».. كانت تلك الصاعقة التي نزلت على رأسي، وفتت في عضدي أكثر من التعذيب والسياط، فما كنت أتوقع أن تصل بهم الخسة والندالة وتلفيقُ التهم إلى هذه الدرجة، أن يهددوني بأمي، وأخذتُ التهديد على محمل الجد، فليس غريباً عن هذه الشرذمة المتجردة من أدنى المستويات الأخلاقية والإنسانية القيام بأي عمل، وبقيت لفترة طويلة متحسباً على أعصابي.. خاصة أنه قد حدث فعلاً اعتقال العديد من النساء.

حتى أخي الصغير.. سألوني عنه، فقلت «إنه طفل عمره سبع سنوات...»  
 قال المحقق ساخراً «بعد سنتين يلتحق بالتنظيم وبنجيبه».

بعد نحو شهرين أو أكثر، طلبوا مني أن أبصم وأنا معصوب العينين، فبصمت على الورقة وظننت أن الأمر انتهى، فقلب الورقة الثانية وأعاد الأمر «ابصم»، فبصمت ثانية، ثم الثالثة فالرابعة.. حتى التاسعة.. وهمس المحقق في أذني بلهجة المنتصر: «عندما يسوقونك إلى حبل المشنقة، تقدّم لوحديك إلى خشبة الإعدام، ولا تدعهم يجزؤوك». ومع ذلك كنت فرحاً لأنني علمتُ أن التحقيق قد انتهى وبالتالي انتهى التعذيب.

بعد أيام نقلوني بالسيارة مع إخوة آخرين إلى دمشق.. كنا أربعة متلاصقين في المقعد الخلفي، أيدينا مقيدة خلف ظهورنا بكلبشات حديدية، وعندما وصلنا إلى فرع دمشق بعد ساعات كانت أكتافي متيبسة ويدي متخدرتان تماماً.

وضعوني في غرفة جماعية، عادية في الحجم ٤\*٥ متر، وكنا فيها حوالي سبعين أو ثمانين شخصا، وعندما حان وقت النوم طلب رئيس المهجع من حوالي عشرين شخصا أن يناموا على جنوبهم متلاصقين مترادفين تماما، ثم أحضر عشرين آخرين وأمرهم أن يناموا فوق العشرين الأولين، أي أن ينزل كل شخص جديد بين اثنين من المضطجعين على الأرض وأن يعاكسهم في الرؤوس والأقدام.. فكان ذلك من أعجب ما رأيت.. وبقي نصف المهجع الآخر ينتظر دوره للنوم.

بعد حوالي شهرين في الفرع العسكري في دمشق، وفي إحدى الأمسيات أقبل الزبانية وبدؤوا يقرؤون أعداداً كبيرة من الأسماء، كان اسمي بينهم، أخرجونا من مهاجعنا، وعصبوا عيوننا، وراحوا يسوقوننا بالضرب والركل عبر الأدراج الملتوية، وكلُّ يحمل كيسا صغيرا، هو كل ما يملكه من ثياب، إلى أن وصلنا إلى ساحات مغلقة الجوانب ولها أبواب حديدية من الخلف، سعدنا إليها.

أمرونا أن نبقى معصبي العيون، وبعد أن جلسنا داخل الشاحات بدأنا نتهامس، كل واحد يسأل جاره، وكان من غرائب الأقدار أن كان إلى جانبي أخي حسام الذي لم أراه منذ خمسة أشهر، أي منذ يوم اعتقالنا! كان السفر مناسبة للتحدث مع بعض، وكلُّ حكى للآخر ما حصل معه، وتذكرتُ أبي رحمه الله، إذ كان دائما يقول لنا عندما يرانا، سويةً «الله لا يفرِّق بينكما»، وهكذا استجاب الله دعاءه ولم يفرق بيننا، وكنا سوية بقية المدة.

## تدمر

### حفلة الاستقبال:

كانت الرحلة إلى تدمر... انطلقنا ليلا ووصلنا في الصباح الباكر مع طلوع الشمس منهكين.

كان الجلادون بالانتظار.. أنزلونا من السيارات وساقونا إلى ساحة كبيرة.. وجوهنا إلى الجدران، وكنا حوالي المائة، وبدأت الحفلة.. كان يقوم على التعذيب ثلاث مجموعات، في كل مجموعة أربعة جلادين.. يضعون الرجل في الدولاب، بحيث ينحصر رأسه من عند خلف رقبته ورجلاه من تحت الركبتين وهما مثبتان داخل الدولاب.. واثنان يلفان العصا على القدمين ويشُدانها للأعلى، واثنان آخراَن ييدآن بالجلد بالتناوب، كل واحد من جهة. كان الرعب يملأ قلوبنا، وصرخات الألم تختلط بوقع السياط المنهمرة. جاء دوري، واستسلمتُ لقدري وأنا أتمتم ببعض آيات الله.. أتذكر أنهم وضعوني في الدولاب ولفوا العصا حول قدميَّ بشدة حتى خلَّتْهُما سوف تنقطعان، وانهالوا عليهما ضربا من الجانبين، لم أعد أذكر الفترة بالضبط وكأنها مُحِيت من ذاكرتي، يبدو أنني غبتُ عن الوعي، ثم استفتقتُ على جلاد يمسك دلواً من الماء ويصبه فوق رأسي والماء يغرغرُ في فمي يكاد يخنقني، وأنا مستلقٍ على ظهري.. بادئ الأمر نسيْتُ أين أنا، ولم أفهم ماذا يحدث؟ واحتجتُ برهة من الوقت حتى عدتُ إلى رشدي، ولم أعرف كم استمرت فترة

الضرب، وكان ذلك من رحمة الله بي إذ أني لم أحس بالعذاب طويلا، وكانت الغيبوبة بمثابة التخدير، وصرّفهم الله عني، لأنهم يملؤون من الذي يفقد وعيه فيدعونه، ويفضلون أن يستمتعوا بصراخ غيره من المعذبين.

كانوا يسخرون ويصيحون في نشوة:

«ولاتحسبنّ الذين دخلوا سجن تدمر أمواتاً، بل أحياء بأيدي الشرطة يعذبون».

### المهجع:

بعد رحلة بأئسة من السفر، ثم حفلة الاستقبال التي استمرت عدة ساعات، قادونا نعرجُ متتاقلين والسياطُ خلف ظهورنا، وأدخلونا أحد المهاجع وأغلقوا علينا الباب.. تنفسنا الصعداء وأحسنا بشيء من الأمان، كان المهجع كبيراً، حوالي مائة متر مربع، ليس فيه شيء غير الجدران القاتمة وطاقات فولاذية في السقف تُرى من خلالها السماء، وهي طبعا لمراقبة السجناء، فكان يطلُّ علينا الشرطي بين الفينة والأخرى ويتسلى بنا.

لم نجد في المهجع ماءً وكان الحرُّ والجفاف والإنهاك قد أخذ منا مأخذه، وأحسست بحلقي يقطع من العطش، وبالرغم من العطش الشديد نمنا من شدة التعب، وأذكر أني فقت على حركة أحد الإخوة يوقظني.. كان قد جمع بعض الماء من الحمام ودار علينا يسقينا، كانت حصّة الواحد مقدار كوب صغير من القهوة، شربنا وحمدنا الله واستغرقنا في النوم.

كان في المهجع دورتا مياه، علينا أن نتدبر أمورنا كلّها من قضاء الحاجة والجلي وتعبئة الماء للشرب وشطف المهجع والغسيل والاستحمام في هاتين الدورتين، فكان هناك وزارة خاصة لتنظيم أمور المياه وتسيير الدور، وأحيانا

كنت أنتظر ساعة أو أكثر حتى يحين دوري لقضاء الحاجة، وفي الاستحمام كانت حصّة الواحد مقدار إبريق واحد أو اثنين في أحسن الأحوال.

رأينا في أرض المهجع وجدرانه احتفارات لطلقات رصاص وآثار دماء، كما أخرجنا من المراحيض كثيرا من الظروف الفارغة من الطلقات، وكانت هذه شواهد من مجزرة تدمر التي نُفِّذت قبل قدومنا بحوالي ستة أشهر، حين قام الصناديد من سرايا الدفاع (الخائرون على الجبهات) بقيادة رفعت الأسد - المعارض السوري الحر حاليا ويا للمهزلة- بالهجوم على السجن، وإلقاء القنابل اليدويّة من الطاقات على المساجين، ثم تمشيط المهاجع والإجهاز على من بقي منهم على قيد الحياة... وراح ضحيتها ثمانمئة إنسان.

في صبيحة اليوم التالي كان أحدنا قد فارق الحياة، وكان جسمه ووجهه متورمين بشدة، وآثار النزوف بادية على وجهه ورأسه.. علمت أن المخابرات لما سلموه إلى الشرطة في السجن، أوصوهم بالقضاء عليه لأنه من التنظيم المسلح. حضر الشرطة وأخرجوه في بطانية، ثم استدعوا عناصر البلدية فحملوه ومضوا به ليدفن في الصحراء.

### عبد الحلیم:

كان عبد الحلیم مريضا بالقلب، وكانوا يسمحون له بأخذ دوائه عندما كان في فرع التحقيق، ولكن عندما وصلنا إلى تدمر نفذ منه الدواء، وبعد أيام قليلة بدأت أعراض المرض تظهر عليه، وأصبح عاجزا عن المشي والوقوف حتى الكلام، ولم يكن في وسعنا فعل شيء، لأن الشرطة كانوا أشبه بالوحوش الهائجة يستحيل التواصل معهم، إلى أن استيقظنا ذات صباح ووجدناه متوفيا، رحمه الله.

هذا هو تاريخ حكم الأسد الأب وجرائم أخيه رفعت، نراها اليوم على يد الأسد الابن وأخيه ماهر.. أليس التاريخ يعيد نفسه؟

### الشرطة:

مع مرور الوقت بدأنا نشعر أن المهجع بيتنا، وأصبحنا نألفه، وحلّمنا إذا خرجنا منه أن نعود إليه، وصار هذا المهجع يعجُّ بالنشاط والتعارف والتدارس، ولا يعكر صفوّننا إلا مجيء الشرطة.. إذ كان لنا لقاء يوميّ معهم على التفقد، فنخرج جميعا إلى الساحة ونقف في أرتال بانتظار مجيء الرقيب ليحصي عددنا، وهم يصيحون علينا «يا مجرمين يا قتلة».. ولا بد في كل مرة من أن يلقى بعضنا نصيبا من الأذى من ضرب بالعصي، أو قضبان الحديد، وكانوا يتعمدون ضربنا على رؤوسنا، فندخل من التفقد ودماؤنا تسيل من رؤوسنا، أحيانا أخرى يسحبون أحدنا إلى وسط الساحة ويجتمعون عليه ضربا كما تجتمع الذئاب على فريستها، حتى يغمى عليه، ثم يخرج اثنان من الإخوة ليجروه إلى داخل المهجع.

كان المجرّوحون يُهرعون فور دخولهم إلى المهجع إلى الحمامات، والدماء تسيل من رؤوسهم ويغسلونها بالماء، وكنت دائما أحذرهم من هذا الأمر، فمن الخطأ غسل الجرح بالماء، مخافة أن يلتهب الجرح ويصيبه الإنتان، ومن العجيب أنه لم تحدث ولا حالة التهاب واحدة في هذه الجروح، وكنت أستغرب هذا الأمر، ولا أجد له تعليلا سوى العناية الربانية!

كان الجرح غالبا ما يكون عميقا يحتاج إلى خياطة، فكنا (الأطباء وأشباه الأطباء) نخيّطه بإبرة الخياطة العادية وخیط عادي!

والموعد اليومي الآخر كان إدخال مايسمونه بالطعام، فكان ذلك أيضا مناسبة ذهبية لهم للنيل منا .

### التنفس:

سمّوه «تنفس» وهو حقّ طبيعي للسجين أن يخرج إلى فسحة السجن ويتنفس في الهواء الطلق ويرى أشعة الشمس، أما بالنسبة لنا فكان التنفس قطعاً للأنفاس، إذ نجلس على الأرض ملتصقين ببعضنا وظهورنا مَحْنِيَّةٌ للأمام، ورؤوسنا تكاد تلامس الأرض، والويل كل الويل لمن يتحرك بأدنى حركة، أو يحاول أن يغير وضعيته.. حتى أنني في إحدى المرات احترقت قدمي بحرارة الإسفلت الملتهب، ولم أجرؤ على سحبها، وعندما وقفتُ بعد انتهاء التنفس المنعش لم أشعر بقدمي من الخدر، ولا أعرف كيف دخلتُ المهجع وأنا أعرج وأسحبُ رجلي سحباً .

كان الشرطة عندما يكونون مسالمين ويحبون التسلية، يبحثون عن صرصور ميت أو فأرة، ويأمرون السجين بابتلاعها، وطبعاً عليه الامتثال للأوامر .

في أحد التنفسات، وقع اختيار الشرطة على «عادل عثمانى» وهو طبيب أسنان من اللاذقية، وأثقلوا عليه بالضرب والأذى.. ومن حلاوة الروح رفع المسكين يده ليصدّ الضربَ المبرّح الذي ينهال عليه من كل جانب وصوب.. فازداد هياج الشرطة، واعتبروا هذه الحركة (رفع اليد) تمرداً وعصياناً، فكالوا له الصاع صاعين، وفي نهاية حفلتهم أمسكت كل مجموعة منهم أحد قدميه وفسخوه من رجليه.. ثم تركوه هامدا بدون حراك.. حملة الإخوة إلى المهجع، ومات بعد أيام، رحمه الله .

## البلدية:

وهم السجناء من العساكر المسجونين لقضايا مخالقات عسكرية، وغالبا ما كانوا من الطائفة النصيرية، ويكلفون بالأعمال الدونيّة مثل الطبخ وتوزيع الطعام على المهاجع وجمع القمامة والحلاقة (بالموس) لنا، ورغم أنهم سجناءً مثلنا، ويفترض أن يتعاطفوا معنا، لكنهم كانوا أسيادا علينا ويفرغون أحقادهم فينا بإذن من الشرطة بل كانوا أحيانا أشد إيداءً من الشرطة.

أما الحلاقة وما أدراك ما الحلاقة، فكنا نرى فيها الأهوال، وكانت حلاقةُ الذقن أقربَ إلى السلخ، وحلاقةُ الرأس أقربَ إلى التنف.. وفي إحدى المرات بينما كنت واقفاً إلى الحائط أنتظر دوري إلى الحلاق، إذ حضر أحدهم إلي ورأيتُ قدميه واقفاً إلى جانبي ثم هوى على عيني بشيء لم أعرف ماهو... أحسستُ بمثل سيخٍ حامٍ في وجهي، وبقيتُ واقفاً متمسرا مكاني أنظر موقع قدمي، فرأيتُ الدم يقطر إلى الأرض، ومازال أثر الضربة في حاجبي حتى اليوم.. والحمد لله الذي جعله يكتفي بهذا القدر من الأذى.

وكذلك الحمام.. إذ كانوا حريصين على نظافتنا! فعندما يصيحون علينا : «بالشورت».. كنا نخلع ثيابنا في ثوان، وننتقل بالسراويل الداخلية ركضا إلى الحمامات.. وكانت صدورنا وظهورنا العارية تفتح شهيتهم للضرب، فيلاحقوننا بالسياط في هوس وجنون، وكأنك تشاهد أفلام رعاة البقر وهم يلاحقون مواشيهم.

أذكرُ أحدَ المواقف مرة.. إذ كنا عائدين من الحمام، وقد وقف شرطيٌّ على مدخل باب أحد الساحات..

استرقتُ النظر بطرف عيني فرأيتُهُ يحمل كرابجاً أسوداً ثقيلاً، وكلما مرَّ سجين أمامه هوى به على ظهره.. كان ممرا إجباريا.. وكنت قد اقتربتُ كثيرا، وعندما صرت إلى جانب الشرطي، صحت في قلبي ومن أعماقي: « يا الله».. الاستجابة كانت فورية وبالتوقيت المناسب تماماً... إذ وقع الكرابج من يده... وبينما التقطه من الأرض كنتُ قد عبرتُ الباب بسلام.

أما الصلاة فهي الجريمة الكبرى، فمن ضُبط متلبساً بالجريمة فقد استحق أقصى العقوبات، وأعني بالصلاة هنا صلاة القلب والعينين طبعاً، فتحريم الصلاة العادية أمر مفروغ منه، ولكنهم كانوا يراقبوننا ويحاسبوننا على صلاة عيوننا، إذ كنا نصلي إيماءً، فكان جلوس أحدنا لفترة مستمرة على وضعية واحدة مدعاة للريبة، فصرنا نُموه بعد ذلك ببعض الحركات أثناء الصلاة.. في إحدى المرات ضبطوا أحد الإخوة يصلي.. أخرجوه إلى الساحة وربطوه من رقبته، وراحوا يطوفون به على هذا الحال حتى مات اختناقاً.. رحمه الله..

ونكايه بالدين ولجهلهم كانوا في رمضان يخرجوننا إلى الساحات ويأمروننا بشرب الماء.. فكانت هذه سقيا لنا من الله.. طبعاً كنا نكمل صيامنا.. فالإكراه ساقط شرعاً...

### توصية خاصة بالمتقنين:

عندما وصلتُ إلى تدمر وعند دخولي ساحة الاستقبال، سألتني شرطي: «ما تدرس؟».

سررتُ من السؤال، وقلت في نفسي جاء الفرج فلعلهم يحترموني إذا

علموا أني طيب! فأجبتُه بثقة: «أنا طيب».

وهنا كانت الكارثة، فإذا به يصيح على زملائه: «تعالو وشوفو هالدكتور»، وسرعان ما توافد قطع الذئاب وتحلَّقوا حولي، وأخذوا يعيدون السؤال عليَّ بين الرفس واللطم: «أنت طيب ولاه؟ شو جابك لهون يا خاين الوطن؟». أستاذنا في كلية الطب «أبو الخير الخطيب» رحمه الله.. علموا أنه أستاذ جامعة وحفظوه، فعانى الكثير ولفترة طويلة، فكانوا دائما يطلبونه بعبارة «أستاذ الجامعة تعال إلى هنا»، ويتقصدون تعذيبه وإهانتة، ويأمرونه بتنظيف الحمامات والمراحيض.

بعد ذلك تعلَّمنا الدرس، أن المثقفَ في السجن جريمتهُ مضاعفة، إذ أنه العقل المدبر في التنظيم، وهو الذي غرر بالبسطاء من العامة والجهلة، علماً أن طلبة الجامعة كانوا يشكلون شريحة كبيرة في السجن.. ولذلك وفي أحد التنفسات، كنا جالسين منحنيين إلى الأرض ورؤوسنا بين أرجلنا، جاء الشرطي وركل أحد الجالسين وسأله «شو قاري ولاه؟» - ويقصد ماذا درست- فأجاب الأخ: «صانع فرَّان سيدي»!

فسأل الثاني «وهنت ولاه؟» فأجاب: «بياع كازوز»!

فسأل الثالث: «وهنت؟» فقال «بلاط سيدي»!

فقال «يخرب بيتكن أفيكم حدا متعلم!».

وأحيانا أخرى كانوا يسألون أحدنا عن تهمته.. فكانت كلمة «إخوان» هي أسوأ جواب ويثير غضب الشرطة وحنقهم... وفي إحدى المرات سألوا

سجينا في المنفردات (قسم خاص للزنانات): ما تهتمك؟» فقال: «لواطة»  
فنجنا من العقاب!

ومرة أخرى أثناء التنفس نادى الرقيب على الجالس في الصف الأول،  
فحضر إليه (وكان يحمل شهادة دكتوراة في الكيمياء) فأمره أن يحضر  
«ممسحة»، ثم قال له «نظف بوطي، بدي ياك تلمعه ولاه كر»، فاجتهد الأخ في  
تنظيف «بوطه»، ويبدو أن الرقيب قد أعجبه التلميع فسأله «شو دارس ولاه؟»  
فأجاب السجين: «رابع ابتدائي سيدي»!

فقال الرقيب هازئاً: «رابع ابتدائي وهيك، لكن كيف لو كان معك إعدادي؟»..  
ودخلنا المهجع ضاحكين ونحن نقول «لو علم أنه دكتور في الكيمياء»!

### رئيس المهجع:

هذا منصب لا يطمح إليه أحد من المساجين، وكان يُجبر عليه إجباراً،  
لأن رئيس المهجع هو المسؤول الأول أمام الشرطة، وكثيراً ما كان يثقلُ  
عليه الضربُ والتعذيبُ ويصيبُهُ الإنهاكُ والتوترُ ويرجو أن يتطوَّعَ غيره لهذه  
المهمَّة الشاقة.

رئيس المهجع هو الناطق باسم المساجين، والمكلف بتنفيذ الأوامر،  
وواقفٌ دائماً على باب المهجع، ومتأهبُّ على مدار الساعة لنداء الرقيب  
عندما يدخل الساحة ويصيح «رئيس المجمع»، وبذلك هو على احتكاك دائم  
مع الزبانية، ويجب أن يكون سريع الإجابة، حاضر البديهة، إذ أنه الأقرب  
إلى بطش الشرطة، وتحيتهم بكرةً وعشياً، وبعبارة أخرى هو الفدائيُّ القابع  
على فوهة المدفع، ونادراً ما يسلم من أذاهم.

كان الشرطة يحضرون عند توزيع الطعام، ويطلبون رئيس المهجع إلى الخارج، ثم يبدأ كَيْلُ السباب والشتائم إليه لأنه لا يضبط الصوت في المهجع وأنه سبب الشغب في المهجع، ثم ينال نصيبه من العقوبة، ويدخل إلى المهجع بالألوان!

«أبو إبراهيم» رئيس مهجعنا وهو من بلدة الكسوة قرب دمشق.. في إحدى المرات طلبوه وقالوا له «يارئيس المهجع أخرج إلينا المشاغبين».. ولما أجابهم أنه لا يوجد لديه مشاغبين.. انهالوا عليه ضربا بالسياط الغليظة على ظهر يديه (وليس على راحتها) وعلى وجهه، حتى دخل المهجع وتقاسيم وجهه ممحبة تماما، عيونه لاتكاد تظهر، فمه وشفته متورمة بشكل مخيف، ومعالم وجهه متبدلة كليا حتى لانكاد نتعرف عليه.. ويداه منتفختان متورمتان مزرقتان وهو يعتصر من شدة الألم.. جزى الله أبا إبراهيم عنا كل خير.

في المرة التالية حضروا كالعادة، وقالوا له أخرج لنا ثلاثة مشاغبين.. التفت أبو إبراهيم إلينا، وقال بصوت خافت حزين: يا شباب من يتطوع؟ ماعدتُ أحتملُ أكثرَ من ذلك!

في لمح البصر كان ثلاثة من النمر ينقضون إلى خارج المهجع على أنهم مشاغبين ليواجهوا التعذيب الوحشي، ونسمع الصراخ وأصوات الجلد والسياط تصدحُ مدويةً في الساحات تشكو إلى الله ظلم الظالمين.. ويدخل الإخوة بعد ذلك مخرجين بدمائهم.. وأحيانا يحتاجون إلى من يُدخلهم بعد فقدهم وعيهم، الأمر الذي يحتاج إلى جرأة وشجاعة.. فقد ينال من يُدخلهم أيضا حصته ويصيبه مثل ما أصابهم.. تماما كما في ثورة سوريا.. فالיום يشيع وغدا يُشيع!

هذه التراكمات المديدة من الظلم والقهر والتعذيب.. سابقا ولاحقا... من الطبيعي أن تولد غضبا عارما ورغبة شديدة في الانتقام، وتطلعا إلى ساعة القصاص، ونحن موقنون بأن يوم القصاص آتٍ لامحالة.. وهناك يلقي المجرم جزاء أعماله..

الظلمُ داءٌ والقصاصُ دواءٌ	والثأرُ للشعبِ الجريحِ شفاءٌ
أسيافنا الغراءُ طالَ هجوُها	وتملمتُ من صمتِها العلياءُ
إن السيوفَ على الجنانِ ظلَّ لها	وعلى السيوفِ المُرَهفاتِ دماءُ
لا يُمنَحُ العيشُ الكريمُ أدلةً أبداً	ولا يجدي الضعيفُ بكاءُ
العنفُ ليس طبيعتي لكنما	قد غيرتني المحنةُ الهوجاءُ
يالائمي في غضبتي لولا تعي ما	قصتي.. لم ثورتني الحمراء؟
هي قصةُ الألافِ قد طحنتهمُ	هوجُ الرحي والفتنةُ العمياءُ
هي قصةُ الغولِ الذي لا يرتوي	يهوى الدماءَ وهمُّه الإيذاءُ
هي قصةُ الكهفِ الرهيبِ	ورجعهُ أهَّ السجينِ وغصَّةُ ودعاءُ
يامنكراً قتلَ العقاربِ	إنها أصلُ البلاءِ وأمهُ الشمطاءُ
والخيرُ كلُّ الخيرِ في إفنائها	والعفوُ في هذا المقامِ غباءُ
دعني أرى الطاغوتِ قد دارت	به كفُّ القصاصِ وكأسهُ السوداءُ
ما عاد يُطربني نشيدُ	إنما خيلُ تحمحمٍ والصليلُ غناءُ
لغةِ الحوارِ ستمتها، والحقُّ في	حدِّ السيوفِ.. وما سواه هباءُ
هياً خيولَ اللهِ هيا فاركبي	طابَ الوغى وليخسأ الجبناءُ
هيا سيوفَ محمدٍ هيا اضربي	تُشفَ الصدورُ.. ويهلكُ الأعداءُ

## الحارس الليلي:

ليس في تدمر وقت أمان، ولو كان منتصفَ الليل .  
 عندما تنتهي المهرجاناتُ النهارية ويحلُّ على الدنيا الظلام، لم يكن  
 يحل على المهجع الظلام، إذ أن المصاييحَ مُضَاءً داخل المهجع على مدار  
 ال ٢٤ ساعة للمراقبة.. وهنا يأتي دور الشرطة الذين يجوبون أسطح  
 المهاجع ويتلصصون علينا من الطاقات الكبيرة التي في السقف.. وعادة  
 في كل مهجع طاقتان تُمكنُ الشرطيَّ من رؤية معظم أرجاء المهجع، فيأتي  
 الشرطي ويطلب رئيس المهجع أو الحارس الليلي، ويبدأ بالافتراء والتوبيخ  
 لكثرة الحركة أو الضجة، ثم تبدأ العقوبات.

هذا ما حدث في إحدى الأمسيات الباردة حين حضر الشرطي واختار  
 ضحيته من أحد إخواننا، فاستدعاه إلى أسفل الطاقة (الشرافة) حتى يراه،  
 ثم أمره بخلع ملابسه، وأمر أبا إبراهيم رئيس المهجع بإحضار «بيدون»  
 الماء وصبَّه عليه، ثم أمره بصفع السجين على وجهه، فلم يعجبه أدائه،  
 فَعَكَسَ الآيةَ وأمر السجين بصفع رئيس المهجع، كذلك لم يعجبه، وهكذا  
 بدأت لعبة تبادل الأدوار بالصفع، ثم انتقل إلى مرحلة الصفع على الوجه  
 «بالشحاطة»، واستبدَّ الحماس بالشرطي من اللعبة فصار يصرخ كالكلب  
 المسعور «أريد أقوى من ذلك يا ابن...» وبعد كل ذلك لم يشتف قلبه فقال  
 « أنتما مُعلَّمان... من أجل عقوبة الغد في الصباح.

بعد فترة أمرونا أن نعيّن حارسا ليليا، ويكون هو المسؤول عن الفوضى  
 في المهجع!.. وعليه أن يقف بوضعية الاستعداد العسكري كالصنم تحت

الطاقة طيلة فترة مناوبته التي هي ساعتان.

حياة السجن فريدة من نوعها، والعلاقات فيها مختلفة ولها نظامها وقوانينها.. هي حياة من نمط خاص يصعب شرحها، ولا يعرفها إلا من عايشها، والعلاقات بين الاخوة متميزة جدا وخالية من أي شائبة، والحياة خليط بين قساوة الصحراء ووحوشها الذين يلبسون ثياب البشر، وبين إلفة وتفاني الإخوة في محبتهم وتوحدهم... وهنا تحضرني هذه القصة...

في إحدى الليالي كان دوري في الحراسة الليلية.. حضر الغراب.. أسود البصر والبصيرة.. نادى من طاقة السقف «حارس ليلي».. تقدمت خطوتين وأديت التحية العسكرية، وقلت «حاضر».. يبدو أن شيئاً ما لم يعجبه!.. بكل بساطة قال «أنت مُعَلِّمٌ» وشتمني ومضى.

انتهت مناوبتي وخذتُ إلى نومي، أو بالأحرى حاولت أن أخلد إلى النوم فكيف يغمض لي جفنٌ وأنا أفكر بعاصفة الصباح!

عندما سمعتُ عواء الذئاب في صبيحة الغد استجمعتُ قواي لكي أواجه قدرتي المحتوم ووقفتُ قرب باب المهجع وأنا أتمتم بالاستعانة والتثبيت من الله.. وبالفعل فُتِحَ الباب وصاحوا «المعلم لبرّه»..

هممتُ بالخروج وصرتُ أمام الباب مباشرة، وإذ برئيس المهجع يمسكُ بي ويردُّني إلى الخلف ويهمس في أذني «ارجع.. خرج مكانك أبو أيوب».

ثوانٍ معدودة وانهالت السياطُ المجرمة.. واختلط صوت السياط بالصراخ الأليم.. شعرتُ كأنها تنهال علي.. وبعد دقائق مديدة وعصيبة فتحوا باب المهجع ودخل البطل أبو أيوب متحاملا على نفسه يجزُّ آلامه وجراحه...

كان ظهره مسلوخاً تماماً.. ليس مزرقاً بل مسوداً من شدة الضرب.. تجمّعنا حوله، حمد الله وابتسم.. هكذا كانت المحبة في الله.. لأذكر ماذا قلت له حينذاك.. ولكنّ أيُّ شكر يفي في هكذا موقف؟.. وتركتُ الشكرَ للذي لا يُضِيعُ أجرَ المحسنين..

جزى الله أخي أبا أيوب خير الجزاء.. لقد فداني بنفسه.. لله در إخوتي ما أنبلهم وما أعظمهم.. وجمعنا الله في دار رحمته بفضلته وكرمه وجعل ثواب تلك الأيام في صحائفنا وشفيعاً لنا وتطهيراً لذنوبنا وتقصيرنا..

وهنا أسوق إليكم قصيدتي هذه: وحش الصحارى..

وكلابُهُ بنباحِها تؤذيني	السجنُ زمجرَ غاضباً يبغني
وتسعرتُ أغلاله تكويني	وترامت فيه السنون ثقيلة
لتفّل عزمي أو يبيد يقيني	شرعت تطوّقني تروم عقيدتي
لشجيرة الإيمان فهي تقيني	فأويت من لفح البلاء وبأسه
عذباً فراتاً.. سائغاً يأتيني	فوجدت تحت ظلالها نبعاً جرى
فيها الجمال ودقة التكوين	ورأيت حول النبع أزهار الهدى
وتطيباً.. والجذر في التمكين	قد زادها وهج البلاء نضارة
من نرفها لا حمرة التلوين	وقوامها المحمّر هذا إنما
تبكي الأنام ودمعها يبكييني	تيجانها خشعت فأحنت رأسها
عبر الغصون بالفة وحنين	وتعارفت أوراقها فتعانقت
ووجدت أن رحيقها يحييني	ألقيت فيها راحتي وسكينتي
وإذا ضللت فنورها يهديني	وإذا اهتديت وجدت فيها نصرة

وإذا ادلهم الخطبُ ثم تحطمتُ  
هي إختوتي، هي معشري في غربتي  
ولكم حزنْتُ، وكم تملكني الأسى  
أشلاء وردٍ مُزقت بشراسة  
لكنَّهُ ما زال يبعثُ تربُّها  
أبدأ يُذكرني مجازرَ مجرم  
ما كنت أنسى صرخةً من مسلم  
ما كنت أنسى إختوتي ودماءهم  
وحشُ الصحارى دينُهُ إجرامُهُ  
وحشُ الصحارى كيف يفقهُ حكمة  
وحشُ الصحارى كيف يرعى زهرة  
هو ليس يرعى غير كلِّ خبيثة  
أشهدتُ ربي لن تهونَ عزيمتي

### عبد الوهاب:

في حلقة ظلمات السجون، كان أعداؤنا أكثر، أولهم الرعب، ثم الحزن، ثم  
الهموم.. لكن كان هناك ما يهزمهم ويدحرهم...

أخونا أستاذ الرياضيات الموهوب «عبد الوهاب»، من عمق بحر الألم، ينظم  
لنا هذه الأبيات التي ترفع المعنويات وتعيدُ شحن قلوبنا بدفقةٍ إيمانية...

خيوطُ الحزنِ أكفاني  
سأحرقُها بإيماني  
وأحيا باسمًا جزلاً  
سراجاً بين إخواني

سَأَقْطَعُهُ بِأَسْنَانِي	حِبَالُ الْخَوْفِ ثَعْبَانٌ
صَرِيحًا بَيْنَ جَدْرَانِ	وَلَنْ أَبْقَى لَهُ صَيْدًا
عَلَى صَدْرِي وَوَجْدَانِي	مَبَانِي الْهَمِّ جَائِمَةٌ
يُدْمِرُهَا كَبْرَكَانِ	وَنُورِ اللَّهِ صَاعِقَةٌ
أَصَارُهَا كَثِيرَانِ	ذَنْبِي جَيْشُ أَشْبَاحِ
بِجُوفِ اللَّيْلِ تَلْقَانِي	كُوبَيْسٌ مُرْوَعَةٌ
يُغْرِقُهَا كَطُوفَانِ	سَأَبْكِي بَعْدَهَا دَمْعًا
بِعَضْوٍ أَوْ بَغْضِرَانِ	لَعَلَّ اللَّهَ يَشْمَلُنِي
بِإِسْلَامِي وَقِرَانِي	سَيَبْقَى أَخْضَرًا عَوْدِي
بِتَحْرِيقِ لَرِيَانِ	وَنَارِ الْأَرْضِ لَا تَجْدِي
لَكُمْ أَعْنَاقُ إِخْوَانِي	لَكُمْ جِلْدٌ... لَكُمْ عَظْمٌ
تَرَاهَا عَيْنُ طَغْيَانِ	خَذُوهَا نَحْوَ مَجْزَرَةٍ
لَنَا جَنَاتُ رَحْمَنِ	لَنَا رَبٌّ... لَكُمْ نَارٌ

### أبودان:

في إحدى الليالي الأنيسة أطلَّ علينا الشرطي من طاقة السقف، وأراد أن يتسلى، أو يداعبنا بمزاجه اللطيف، فأمر الحارس الليلي - وكان «أبو عبدو» رحمه الله- أن يعضَّ سجيناً من أذنه، واشترط عليه حتى يُفَلَّتَ من «القَتْلَة» في اليوم التالي، أن يرى الدم يخرج من أذن السجين، واضطر «أبو عبدو» أن ينفذ الأمر، والسجين يولول، فعضةٌ داميةٌ في الأذنِ أهونُ بكثير من الخروج في اليوم التالي إلى حلبة الوحوش.

سُرَّ الشرطيُّ من حسن أداء أبي عبدو، وارتوت شهوته الإجرامية برؤية الدم يسيل من أذن الأخ، وقال له «أحسنْتَ يا أبو دان». وأطلق عليه هذه التسمية «أبو دان».

في المناوبة التالية لنفس الشرطي، أقبل إلينا ليعيد المشهد مرة ثانية، فصاح أين «أبو دان؟».

حضر «أبو عبدو»، وأمره الشرطي أن يعضَّ سجيننا آخر، ولم يغادر مصاص الدماء حتى رأى الدم يسيل من أذنه.

كانت لدينا في المهجع بعض الحبات من دواء اسمه «ريفا» يستخدم لعلاج داء السل، ومن خصائص هذا الدواء أن لونه أحمر فاقع، حتى أنه يصبغ البول باللون الأحمر وإذا اختلط بالماء يبدو كالدّم تماماً!

وضع أبو عبدو» حبة ريفا في جيبه وأبقاها معه تحسباً للحظة الصفر، وحضّر مصاص الدماء كما كان متوقعاً، ونادى: «أبو دان إلى هنا».

أقبل «أبو عبدو».. اختار الشرطي ضحيته كالعادة، وأمر أبا عبدو بالانقضاض عليه.. كان «أبو عبدو» قد وضع الحبة بحركة سريعة في فمه وقرطها، وأطبق فاه على أذن الأخ متظاهراً أنه يعضُّه، والسجين طبعاً يتابع التمثيلية ويصرخ ويولول، وسالت «الريفا» حمراء على شفاه «أبو عبدو» وعلى أذن السجين، وانصرف الحمار منتشياً مسروراً، وهو يقول «أبو دان آفي متلو».

رحم الله أبا عبدو، إذ كان في عداد الشهداء.

### حسام

كان إدخال الطعام من أشد المغامرات المحفوفة بالخطر العظيم، فالسجين مشغولٌ كلتا يديه بحمل أوعية الطعام الكبيرة (طشت الغسيل

الكبير) أو أكياس الخبز (شواتات)، وبالتالي لا يستطيع درء السياط عن رأسه ووجهه، فكانت هذه أفضل مناسبة للذئاب لإيقاع الأذى بفريستهم.

كان الطعام يصلنا بنفس «الطشت» التي تُخَرَجُ بها القمامة، وكثيرا ما نجد القمامة ما زالت في «الطشت» تحت الطعام.

كان يمر الشرطي ويمسك حفنة من التراب أو الحصى ويرميها في «طشت» البرغل، الذي هو أصلا مليء بالحصى ولا يحتاج إلى إضافة، أو يبول في الشاي.

الخبز كان يأتينا ب «شواتات»، خبز عسكري مستدير سميك قاسٍ كالحجر، كنت مضطرا إلى نقهه بالماء كي أستطيع أكله.

كانت كمية الطعام قليلة جدا، فالبيضة عادة لأربعة أشخاص والتفاحة لثمانية، ونصف ملعقة لبنة للشخص الواحد أو ملعقة حلوة، أما اللحمية والدجاج فهي قَطْعٌ نادرٌ ولا تزيد عن لقمة واحدة للشخص، وكنا غالبا نتركها للمرضى لقلتها.

فَتَّةُ الحلوة كانت من الأطعمة المفضلة لدينا إذ كنا ندخرها ثم نمدها بالشاي ونخلطها مع كسارات الخبز، فتصبح وجبة شهية مناسبة للولائم! حتى قشر البطيخ.. لانرميه، ونصنع منه مخلل.

كان بعض الإخوة يقدمون حصتهم من الفاكهة هدية للمرضى أو للجرحى، وكثيرا ما كانوا يرسلونها خفية أو يدسونها بين حاجياتهم دون أن يخبروهم بيتغون بها وجه الله، فكان لا يدري الآخر من أين وصلت الهدية، وكانت هذه الهدية أقصى ما يمكن أن يقدمه السجين لأخيه (ربع تفاحة أو ملعقة حلوة).

كان أخي حسام من الذين يفعلون ذلك، وفي إحدى المرات ضبطته.. إذ كنا جالسين إلى الطعام ولاحظتُ أن لدي قطعتين من التفاح (حصتين) فنظرت إلى موقع أخي فلم أجد أمامه شيئاً، وكان قد غافلني ووضع حصته أمامي دون أن ألاحظ، سألتُه «من أين هذه؟» فحاول أن يتهرب من الجواب، فأعدتُها إليه. كان رَحِمَهُ اللهُ من الذين يطبقون قول الله فعلاً وعملاً «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة».

كان بحوزتنا كمية قليلة من النقود، وكان نظام السجن في وقت من الأوقات يسمح بشراء بعض الحاجيات البسيطة مثل الألبسة والمنظفات، فوصى حسام على «بيجامة».

وصلت «البيجامات»، فهُرع كل من وصى على «بيجامة» واختار واحدة إلا حسام، فكان آخر من ذهب، وانتظر حتى انتهى الجميع من انتقاء «بيجاماتهم» وأحضر آخر قطعة، نظرتُ إليها فكانت حمراء كريهة المنظر...

كان السجناء يتحاشون اللباس الأحمر أمام الشرطة لأن اللون الأحمر كما هو معروف يثير الثيران بكل أنواعها! وعندما كنا نخرج إلى الساحات ويريد الشرطة تمضية وقتهم والتسلي بأحد المساجين، كان أول ما يصيحون به بشكل عفوي «أبو الأحمر»، فكان السجناء يتجنبون اللون الأحمر في ملابسهم. انزعجتُ من حسام وأبديتُ تذمري من اختياره، وقلت له ربما أحجاجُها وألبسُها أنا، وهذا اللون غير مرغوب به كما تعلم، إنه الأحمر، لون الشرطة المفضل.. لم يجاوبني، إذ كان رَحِمَهُ اللهُ يحترم تقدمي عليه بالعمر (سنة واحدة فقط!)، غاب قليلاً وعاد.. حاول أن يرضيني، استبدلها من أحد

الأخوة ببيجامة أخرى حمراء أيضا ولكن أقل حمرة!

أحيانا كان أفراد الشرطة يلاحقوننا بوحشية وهياج أثناء دخولنا إلى المهجع بالسياط على ظهورنا ورؤوسنا، فيدب الذعر بيننا ويحدث الهرج والمرج والتدافع على باب المهجع.. ولكن حسام لم يكن يهرب، وكان يصمد ومن أواخر من يدخلون المهجع.

كان أخي حسام رحمه الله على رأس الطليعة الفدائية المتطوعين لمهمة إدخال الطعام.

كانت إحدى أمسيات السجن الكثيبة عندما فُتِحَ باب المهجع، واستدرنا جميعا إلى الجدران، وصاح السجنان «لبراً».. أي أدخلوا الطعام.. خرج ثلاثة فدائيين لإدخال الطعام، ولم أكن أعلم من الذين خرجوا، وبدأ الجلد والضرب.. ثم تلا ذلك صوتٌ صيحةٍ رهيبة شقَّتْ عنان السماء وأدخلتِ الهلع إلى قلبي، ثم سكنتِ الأصواتُ كُلُّها واختفى صوت الصراخ... إنه الإغماء، أحسست أن الصوت مألوف جدا لدي، مع أنها كانت صرخة يصعبُ التعرفُ على صاحبها.. أُغلق الباب.. وانصرف الجزائريون.. وهرعنا جميعاً نستطلع الخبر.. وكانت الساعة.. وكان خنجرا أُغمد في صدري.. لا أنسى تلك اللحظة.. يا إلهي.. كان أخي حسام.. رحمتك يارب..

ساد المهجع سكونٌ قاتل.. الجميع يراقب في وجَلٍ وصمت.. أقبلتُ إليه وقد انعقد لساني، فماذا عساي أقول، كان يتألم بشدة لكن بصمت والإعياء بادٍ عليه.. عينه حمراء متورمة والدم يقطر منها.. بدا في لحظة انهيارٍ لثوان وكأنه أدرك شدة إصابته، بكى، ثم سرعان ما تمالك نفسه، ثم تنهَّدَ

تنهيدة عميقة حزينة تحكي كل معاني القهر والأسى، تشكو إلى الله ظلمَ العباد، وطغيانَ أهلِ الفساد، ثم راح يحمَدُ الله... كان ذلك اليوم من أسوأ وأحزنِ أيامِ حياتي..

كان أثر السوط واضحاً على رأسه، على شكل شريط أحمر مدْمَى، نهايته عند عينه.. وكان يحمل «شوال» الخبز الثقيل بكلتا يديه، عندما تحيَّنَ الجلاد الفرصة ليهوي بحقده الأسود بالكرباج (السوط) على رأسه، ويلتف السوط الغليظ على رأسه وتدخل نهايته في عينه.

حاولنا أن نجمع بعض قطرات العيون من الموجودين معنا، ولكن ماذا عساها تفعل القطرة؟ ولكني تشبثتُ بالأمل، وحاولت أن أخفي قلقي وتوجسي، وكنت أقطرُ له باستمرار، وأنتظر الأيام على أحرَّ من الجمر، إلام سيؤول الأمر.

وضع ضماداً على عينه لعدة أيام، كنت أتحاشى أن أنظر إلى عينه، ولا أريد أن أصطدم بالحقيقة، وأُعلِّ نفسي بالأمل، إلى أن التأم الجرح وأن الأوان لنزع الضماد.. نَزَعْنَا الضماد ورفع رأسه وفتح عينيه.. كان هادئاً جداً.. واثقاً مطمئناً لقضاء الله.. صلباً متماسكاً.. كان المهجع في سكون تام، والجميع يراقب في صمت وكأن على رؤوسهم الطير.. ينتظرون النتيجة الحزينة... كانت عينه بيضاء تماماً... أطرقتُ رأسي طويلاً إلى الأرض والقهرُ يأكلُ ضلوعي وانهمرت دموعي غزيرة في صمت.

أحتسب أجره عند الله.. عن أبي هريرة، رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يقول الله عز وجل: «من أذهب حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة».

في إحدى المرات وصلتنا بعضُ الحاجيات (ثياب وطعام) من أهلي عن طريق زيارة لسجين صديق معنا .

سررتُ بالأمر، وأحسستُ أن باب الفرج أطل علينا أخيراً، فقلت لحسام «لعلَّ هذه البداية وربما يستطيع أبي الوصول إلى المسؤولين ويوصيهم بنقلنا من هذا الجحيم.. أي المهجع الذي نحن فيه إلى مهجع آخر، حيث المعاملة أفضل»... أطرق قليلاً ثم قال بأسلوب لبق مهذب وباختصار شديد، وكأنه يُنكر عليّ قولي، وطريقة تفكيري في النجاة بطريقة فردية: «ومَن لهؤلاء؟».. أحسست بالخجل.. لم أستطع الإجابة.. كلمتان قالهما كانتا أبلغ من مئات الصفحات من المواعظ.

كان مع الحاجيات التي وصلتنا كمية قليلة من الحليب المجفف (بودرة)، وكانت إصابة حسام حديثة، وكان من المناسب أن أخصّه بشيء من الغذاء كونه مريضاً، وهذا الحليب بالأصل من ملكيتنا الخاصة، فهيات له كوباً ووضعته أمامه بهدوء، وجلسنا أفراد القصعة إلى الطعام (وكنا ثمانية).. لم يتكلم أو يعلّق.. أمسك كوب الحليب وصبّه فوق الطبق المشترك في الوسط.. لم أنطق بأية كلمة.. كان ردّاً عملياً بدون كلام!

كان محبوباً من رفاقه وإخوانه، مرحاً، يُدخل البسمة إلى قلوب الحاضرين بنكتة لطيفة رقيقة، بارعاً في تقليد الأصوات، ذكياً في تعليقاته، كثيرَ الذكر والاستغفار.

مرة جلسنا -أفراد المجموعة - إلى الطعام، وكان دور حسام في الاستحمام، فتأخر.. تناولنا الطعام إلا فتى كان معنا لم يأكل، سألتُه «لماذا

لم تأكل يا فلان؟».. أجاب «أنتظر حسام.. لا أكل حتى يأتي»... فعجبتُ من حبه لحسام وقلتُ في نفسي والله لقد سبقني ذلك الفتى، وفعل ما لم يخطر على بالي فعله!

هذه سيرة إخوتي وأصحابي في الأسر، أما سيرة الوحش الذي حكم سوريا ثلاثين سنة ورسخ نظاما بوليسيا إرهابيا لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا فيعرفها الجميع ويعيشون جرائمها مع الوحش الابن.

وتستمر العواصف الشديدة تهز كياني.. عواصف الظلم، والبعد، والألم...

فأشعر أن بركاننا يثور في صدري... وأستحثُّ انتقام الله والعباد...

عاصفاتُ غاضباتُ	في ضلوعي لاهباتُ
تَنشُدُ الثَّارَ لجرحي	عن كُماةٍ باحثاتُ
فاشحذي الأسيافَ كفي	واجمحي يا عاديات
غضبةٌ ضجَّتْ برأسي	ولثاري جنَّ فأسي
وانتقامٌ صارخٌ يم	لأُ إحساسي ونفسي
يا صديقي لا تلمني	لم تلمّ لوذقتَ بأسي
كم حقوقٍ ضيَعوها	كم دمءٍ أهْدروها
كم يتامى ذابَ قلبي	عن ذويها أبعدها
كم ورودٍ كيف تنسى	في الصحاري أحرقوها
كم قبورِ شابٍ رأسي	بالضحايا أمْلؤوها
كم جنانٍ من بلادي	دون حربٍ سلموها
كم من التاريخِ صُحِفِ	بالمخازي سَوِّدوها

شهداء الله أنتم عن فؤادي ما ابتعدتُم  
 غرسُكم ما زال يُسقى من دمائي لو علمتم  
 ولكم عهدٌ بأننا سائرونَ حيثُ سرُّتم  
 نحن حراسُ الثغورِ نحن آفاقُ النسورِ  
 نحن بركانٌ تلظى يصطلي نحرَ الكفورِ  
 مُنتهانا ينتهي إم ا لنصر أو لِحورِ

### مجزرة حماة

في شباط ١٩٨٢ وبعد أن اعتدنا إلى حد ما على نمط الحياة والأحداث وتعامل الشرطة، لمسنا فجأة تغيراً في هذا النمط، فشراسة الشرطة زادت حدةً، مع اشتداد طريقة الضرب والتعذيب والوحشية، وازدياد الشتائم المرتبطة بالعمالة والخيانة وعبادة الوطن، إضافة إلى ذلك ازدياد عدد الوافدين إلى سجن تدمر بشكل ملحوظ.. توقعنا أن شيئاً مهماً قد حدث في البلد.

بعد ذلك بدأت المهاجع تضيق بالوافدين الجدد، ولما امتلأت جميع المهاجع في السجن إلى درجة الاختناق شرعت الإدارة الحكيمة في بناء مهاجع جديدة وسط الساحات لتتسع لهذه الأعداد الغفيرة، ثم اضطروا إلى ضم قسم من المسجونين الجدد إلينا، فزدنا ازدحاماً فوق ازدحامنا.

كان معظم القادمين من مدينة حماة، وكانوا بالآلاف، وأخيراً عرفنا منهم النبأ.. وأن الذي حدث إنما كان ثورة شعبية في مدينة حماة وقام جيش الأسد بسحقها بآلته القمعية العسكرية.

ورد ذكر مجزرة حماة في موسوعة الويكيبيديا، وأنقل موجزاً عنها:

هي أوسع حملة عسكرية شنها النظام السوري ضد الإخوان المسلمين في حينه. بدأت المجزرة في ٢ شباط عام ١٩٨٢ م واستمرت ٢٧ يوماً. حيث قام النظام السوري بتطويق مدينة حماة وقصفها بالمدفعية ومن ثمّ اجتياحها عسكرياً، وارتكاب مجزرة مروعة كان ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين من أهالي المدينة، وهُدِّمت أحياء بكاملها على رؤوس أصحابها، كما هُدم ٨٨ مسجداً وثلاث كنائس، فيما هاجر عشرات الآلاف من سكّان المدينة هرباً من القتل والذبح والتكيل.

خلال تلك الفترة كانت حماة عرضة لعملية عسكرية واسعة النطاق شاركت فيها قوات من الجيش والوحدات الخاصة وسرايا الدفاع والاستخبارات العسكرية ووحدات من المخابرات العامة. وقاد تلك الحملة العقيد رفعت الأسد، ووضعت تحت إمرته قوة تضم ١٢ ألف عسكري مدربين تدريباً خاصاً على حرب المدن.



اختلف عدد ضحايا المجزرة باختلاف المصادر فقالت اللجنة السورية لحقوق الإنسان أن عدد القتلى بين ٣٠ و ٤٠ ألف، غالبيتهم العظمى من المدنيين، قضى معظمهم رمياً بالرصاص بشكل جماعي، وتم دفنهم في

مقابر جماعية.. ووفقاً لتوماس فريدمان فإن رفعت الأسد يتباهى بأنه قتل  
٣٨ ألفاً في حماة.

هذا بالإضافة إلى السجناء السياسيين الذين أودعوا في السجون  
العسكرية عشرات السنين، وإنزال عقوبة الإعدام بكل مواطن ينتمي لجماعة  
الإخوان المسلمين، وكذلك آلاف المفقودين.



## المحكمة

والأصح أن تسمى المهزلة...

بعد أحداث حماة بفترة بسيطة، وفي صباح ١٧ نيسان ١٩٨٢ حضر الزبانية وبدؤوا يقرؤون أسماء كثيرة، حتى بلغوا حوالي ستين اسماً، كان جُلُّهم ممن معي في مهجعي، وكنت أنا وأخي في جملة هذه الأسماء.. كانت قراءة الاسم عادة مثيرة للقلق والخروج من المهجع لأي سبب مصدراً للخوف.. خرجنا من المهجع بوضعية السجين المعروفة في تدمر، وهي الرأس إلى الأسفل، والنظر حيث موضع القدم، والظهر منحني أقرب إلى الركوع، وكلُّ يُمسك بخاصرتي الذي قبله في طابور..

اقتادونا إلى ساحة قريبة من إدارة السجن، وأجلسونا على الأرض في وضعية مشابهة للسابق، وبدأوا يقرؤون أسماءنا بشكل فردي، فيهبُّ صاحب الاسم واقفاً، ويأتي الشرطة فيقودونه بالركل والصفع إلى غرفة في الداخل، ويغيب برهة من الزمن، وأحياناً نسمع صرخاً وأصوات الجلد والسياط، ثم يأتي دور التالي.

جاء دوري.. أدخلوني إلى غرفة مكتب، وقفتُ في منتصف الغرفة، حيث كان رجل يجلس إلى طاولة مهترئة (القاضي العسكري) وبجواره رجل آخر يدوّن ما يملي عليه الأول... بدأ بالسؤال فوراً دون أن يُعرّفني بأنه قاضٍ وأن هذه محاكمة!

قال- هل أنت فلان؟

- نعم.

فالتفت إلى معاونه وعلّق: «كان أبوه مديرا عاما للموائى السورية، وكان يتهجم ويُجرّح عناصر الأمن»...

هكذا كانت محاكمتي وتهمتي: معاداة أبي للنظام البعثي، وكانوا حاقدين عليه بسبب استقامته ورفضه للرشاوى، واصطدامه بكبار المتنفذين في الدولة ومنهم جميل أسد ورئيس فرع المخابرات العسكرية في اللاذقية، وإعلان انتمائه الإسلامي جهارا، وللأسف كان من أبناء طائفتنا وملتنا من الذين ناصبوه العدااء الكثيرون، وسأذكر لاحقا قصة جمال صوفي مع أبي كمثال.

ثم أردف قائلا: ما العمليات التي قمتَ بها؟

فأجبتُه متفاجئا بالسؤال: لم أعمل شيئا.. فأتبعه فورا بسؤال آخر: من

دعاك إلى التنظيم؟

في مثل هذا الموقف من المستحيل أن تقولَ أنني غير منظم أو مظلوم، فحاشا لهم أن تتهمهم بالظلم، والويل لمن يدعي البراءة، فهم لم يُحضروا الناس إلى السجن جزافا!..

فكرتُ في نفسي أن أي إنكار أو محاولة تغيير في إفادتي سوف تجلبُ لي وجع الرأس والجسم، وفتح علي أبواب التحقيق من جديد، ولن أستفيد شيئا، لأن الأحكام مقررةٌ سلفا، فقلتُ في نفسي سوف أختصر الطريق وأطابق بين أقوالي السابقة في التحقيق وأقوالي الحالية، وأكتفي شر هذا اللقاء.. وتبين لي فيما بعد أن ذلك كان خطأ مني، وضعفي في التحقيق والمحكمة كاد أن

يوصلني إلى الإعدام، وكان هذا من جملة استهتارنا بعدونا...

المهم أن ذلك الرجل، سألتني بضعة أسئلة، لأجرؤ فيها على الدفاع والنكران، ثم التفتَ إلى معاونه في سخرية قائلاً: «يا حرام، انظر، شباب في عمر الورود، أليس من الخسارة إعدامهم».

لم أكرث كثيراً لكلامه، وظننته نوعاً من الحرب النفسية، وكان كلُّ همِّي أن أعود إلى مهجعي سالماً.. واستغرقتُ مقابلي حوالي خمس دقائق، وتبين لنا في مابعد أنها محاكمة عسكرية، وكان قاضيها ذلك المجرم - لارحمه الله - «سليمان الخطيب».

انتهت محاكمتنا جميعاً (الستين شخصاً) في حوالي أربع أو خمس ساعات.. نعم في خمس ساعات يحاكم ستون شخصاً، أي بمعدل خمس دقائق للشخص الواحد، ويحكم على نصفهم بالإعدام، وعلى ربعهم بالسجن المؤبد! وعلى آخرين قليلين بالبراءة.. وهؤلاء «البراءة» يعودون معنا يكملون سجنهم! وكذلك كانت محاكمة أخي حسام، واتَّهمه القاضي بالتنظيم المسلَّح، والتفتَ إلى الكاتب وقال: «اعدمه».

يقول أبي عن علاقته مع جمال صوفي:

هو من أبناء اللاذقية من الدورة الأولى للكلية العسكرية في عهد الاستقلال، كنتُ معاوناً له، وكان ذا اتجاه بعثي وقد دخلتُ معه في جدل عدة مرات بسبب عدائي لحزب البعث، وكاد يرميني إلى المهالك عدة مرات.

لما كان حافظ أسد برتبة ملازم حصل شجار في القرداحة، وكان جمال صوفي قائداً للمنطقة الساحلية فأمر بتوقيف حافظ وأرسله إلى دمشق مخفوراً.

كان جمال من الموالين للوحدة ولعبد الناصر، وعُين وزيراً للتموين في الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة.

بعد أن صار حافظ رئيساً للبلاد، أمر بسجن جمال وتعذيبه وإذلاله، وهكذا انقلب الزمان وألقى حافظ القبض على جمال وسجنه لمدة أربع سنوات مع التعذيب.

عند خروجه من السجن لم اكن أرغب أن أسأله عن ظروف السجن كي لا أذكره بتلك الأيام، لكنه بادرني من تلقاء نفسه وحدثني عن تلك الأيام بالتفصيل، بدءاً من الزنزانة المنفردة إلى الضرب والتعذيب.. فالزنزانة كانت بطول ١٨٠ سم وعرض ٨٠ سم ليس فيها مرحاض ولا ماء، وصحن الطعام كان يركل إليه بالأقدام، وكانوا يسمعونه أشرطة مسجلة لأناس يعذبون وأصوات إطلاق رصاص وأنباء تُعلّمه بموت أولاده وزوجته.

استدعاه في أحد المرات اللواء ناجي جميل (ضابط أنيطت به مسؤوليات أمنية لفترة طويلة إلى أن رمي به في حاوية النفايات بعد انتهاء دوره) وكان علي دوبا موجودا وحوالي خمسة عشر ضابطا آخرين لمناقشته في بعض الآراء السياسية، وقال لي جمال أنه شعر بنفسه كأنه حيوان استقدم أمامهم ليتفرجوا عليه.

استدعاه حافظ بعد خروجه من السجن لمقابلته في اللاذقية وأمضى معه أربع ساعات من الحوار، بعدها منح ابن جمال بعثة دراسية خارج البلاد على نفقة الدولة، في إشارة غير مباشرة من حافظ أنه رب الأرباب وعنده الجنة وعنده النار، يعذب أو يرحم.

حفظ في السجن أجزاءً من القرآن الكريم، وبعد إطلاق سراحه قام بأداء مناسك الحج، وفي إحدى زياراتي له قال لي: (إن ما يجمعنا اليوم هو الأخوة في الدين، كنتُ أقول عنك أنك عنيد، واليوم أقول الحق، لقد كنتُ أنت على صواب).

في أواسط التسعينيات توفي، سامحه الله وغفر له وأسكنه الجنة.

### تدمير الجامعة

بعد أيام من وصولنا تدمر، وبعد أن تعافت معظم جراحنا، وعرفنا أنه استقر بنا المقام ولأمد غير معروف، بدأنا نُنظِّم حياتنا، ونوزع المهمات... فكان هناك من وظيفته توزيع وتحديد أماكن النوم بواسطة الخيط، وكانت حصة الواحد تعادل شبرا واحدا من الأرض عرضا وبمقدار طوله طولاً مع بعض التداخل بالرؤوس والأقدام، وكذلك توزيع الطعام، فكانت كل مجموعة تضم ثمانية أشخاص، واسمها «القصة» كما هو التعبير في القطعات العسكرية، وكان يتولى رئيس المهجع ترتيبنا للخروج إلى التفقد في أرتال وصفوف، وهناك من ينظم الدخول إلى التواليت والاستحمام والغسيل، وما إلى ذلك من حياتنا اليومية.

وما إن تنتهي لقاءتنا البغيضة مع الجلادين، حتى ينقلب المهجع إلى خلية نحل، ويبدأ الدرس والتدريس، وتتشكل حلقات العلوم الشرعية والعلمية، فكل واحد إما معلم أو متعلم.. فمن حفظ القرآن والحديث، إلى علوم التجويد وأحكام الفقه والعقيدة، إلى قواعد اللغة العربية والإعراب، حتى أعربنا معظم القرآن، مروراً باللغة الإنكليزية والدروس الطبية، إلى

تعلم الخط والتخطيط وحفظ الشعر ونظمه، وانتهاءً بمباريات الشطرنج (كنا نصنعه من العجين).. إضافة إلى المسرحيات الترفيهية.

أما الورشات، فمنها صنع الخيطان والشبّاك (من أكياس النايلون)، وصنع الملاعق والسكاكين وصنارات الصوف (من الجاطات والأوعية البلاستيكية المكسورة)، وغزل الصوف، إذ كنا ننقُضُ الكنزات المهترئة ثم نصلح الخيطان ونعيد غزلها من جديد.. كذلك حفر الحيطان (بواسطة قصاصة الأظافر) وتركيب علاقات في الحائط من الخيوط والبلاستيك حتى نعلق أكياسنا على الجدران نظراً لضيق الأمكنة.

أما أنا فكان من جملة أعمالى قلع الأسنان.. إذ كان الألم يشتد بصاحبه حتى يضرب رأسه بالحائط في جنون، ويَقْبَلُ بأي حل ممكن للتخلص من ألمه.. ومع أن ذلك ليس عملي، وليس لي سوابق تجربة في قلع الأسنان، إلا أنني وجدت نفسي مضطراً تحت الأمر الواقع، لأن أقوم بهذا العمل، فكنتُ أجدل خيطاً متيناً وأربط طرفه على الضرس المطلوب قلعه، وأربط الطرف الآخر بمعلقة خشب فتصبح كالمقبض، ويساعدني اثنان أو ثلاثة في شد الحبل وتثبيت الضحية.. ونبدأ الشدّ.. ويا ميسّر.. وفي كثير من المرات كان الضرس يطير في الهواء.

استطاع معظمنا بفضل الله حفظ كتاب الله، وكنا نقرأ القرآن مثني مثني، أي كل اثنين معا على الأغلب، حتى لا نلفت أنظار المتلصّصين علينا من الطاقات... واحدٌ يقرأ والثاني ينصت!

كان الذين يحفظون سوراً من القرآن قبل دخولهم السجن المصادر

لتحفيظ القرآن، فمثلا أنا كنت أحفظ سورة مريم وطه والنمل، فقامت بتحفيظها لبعض الإخوة الذين قاموا بدورهم بنقلها إلى غيرهم، وكان أخي حسام يحفظ سورة الأنعام، وهكذا حتى استطعنا جمع القرآن الكريم كلّه، ومعظمنا حفظ القرآن في سنتين أو ثلاثة على الأكثر، وفي كثير من الأحيان كان بعضنا يبدأ بالفاتحة عند صلاة الصبح ويُنتهي الختمة بسورة الناس عند المغرب.

وكان معنا أبو حسن قطان الذي يحفظ السيرة النبوية كاملة عن ظهر قلب، فحفظناها منه.. وكذلك كان معنا أساتذة وطلاب الشريعة الذين نقلوا لنا الأربعين النووية وكثيرا من الأحاديث الشريفة وعلوم الفقه.

كانت معظم أوقاتنا مليئة، فمثلا كان يأتيني من يطلب حفظ سورة، فأعذر منه وأعيّن له موعدا بعد أسبوع!

كما تناقلنا الكثير من الأشعار والأناشيد الإسلامية، مثل «أخي أنت حر وراء السدود» لسيد قطب، وروائع هاشم الرفاعي والمعلقات الشعرية.

### هاشم الرفاعي

باعتبار أن حال المسلمين واحدٌ في كل البلاد العربية، تحضّرني هنا هذه الأبيات التي قالها الشاعر المصري الفذ هاشم الرفاعي، وقد مات مقتولاً (وليس إعداماً) وهو في العشرينات من عمره، وله عدة قصائد، قرأتها قبل وقوعي في محنتي، وكان لها بالغ الأثر في نفسي.. وبتقدير النقاد الشعريين لو قُدّرت الحياة لهذا الرجل لكان من أعظم شعراء العصر الحديث، وهذه الأبيات من قصيدة «أم تهدد ابنها»:

هو مشهدٌ من قصة حمراء في أرضٍ خضيبه  
 كتبتُ وقائعهُ على جُدُرٍ مُضْرَجَةٍ رهيبة  
 قد شادها الطغيانُ أكفاناً لعزتنا السلبية  
 مشتِ الكتيبةُ تنشرُ الأهوالَ في إثرِ الكتيبة  
 والناسُ في صمتٍ وقد عقدتُ لسائهمُ المصيبةُ

أما قصيدته الشهيرة، «رسالة في ليلة التنفيذ»... فقد كنتُ في سفر بين اللاذقية ودمشق، فبدأت بقراءتها عند انطلاق الباص من اللاذقية، ومن شدة تأثري وإعجابي بها قرأتها عدة مرات، وما وصلتُ دمشق إلا وكنت قد حفظتها، ومازلتُ أذكرُ حين قرأتها على مسامع أبي -رحمه الله- كم تأثر بها أيضاً، وفاضت الدموع من عينيه... ونقلتها فيما بعد لإخواني في تدمر. في السجن عاودتني الذكريات وأحسست أنني أعيش تفاصيل هذه القصيدة وأحداثها، وأنها تحكي حالي وحال كلِّ مؤمنٍ أودِيَ في سبيل الله... وكان هذا البيت يهزني من أعماقي وأشعر أنه اختصر محنتي كلها في بيت واحد:

دمعُ السجينِ هناك في أغلاله      ودمُ الشهيد هنا سيلتقيان

فأنا السجين في أغلاله... ودم الشهيد هو دم حسام...

وبعد خوضي بحور الشعر ومحبتني لتلك القصيدة وجدت نفسي أخاطب أبي بنفس القلب واللسان.. وأرسل إليه رسالتي هذه بعد مضي اثني عشر عاماً في السجن:

الترسُ والبِتَّارُ يستبقان  
عامانِ يا أبتاهُ زادا عشرة  
في القبرِ في التابوتِ في ظلماته  
في غارِ وحشٍ هائجٍ متضور  
لجريمةٍ أني تبعْتُ محمداً  
أبتاه فاصبر إن آتاك بأنه  
أبتاه لا تأسفْ عليّ ولا تقل  
ودع التحسراً والقنوطَ ولا تهنْ  
أنت الذي علمتني معنى الهدى  
وهمستَ في أذني بني تبصرَ  
ولدي: ولا تخذعك كثرتهم ولا  
فلم التعجبُ يا أبي إن نُمِتْحَنَ  
ما المألُ والأهلونُ إلا فتنة  
والسجنُ والإيذاءُ سلْمٌ مؤمن  
والخسرُ خسرُ النفسِ في سَقَطَاتِهَا  
أبتاه إن بعنا الحياةَ بجنةٍ

### المسؤول الصحي

بعد نحو ثلاث سنوات أمر الشرطة بتعيين مسؤول صحي في كل مهجع!  
وقع اختيار السجناء عليّ، وبذلك حزتُ على هذا الترفيع! وهكذا صار  
في كل مهجع شخص مكلف بمتابعة المرضى والتكلم باسمهم أمام طبيب

السجن، وليس بالضرورة أن يكون طبيبا، فقد يكون صيدليا أو مخبريا وربما بيطريا، أو حتى مجرد عنده بعض المعلومات الطبية الأولية.

كانت مهمتي أن أخرج من المهجع راكضا بأقصى ما لدي من سرعة عندما يفتح الشرطي باب المهجع ويصرخ «مسؤول صحي»، لأقابل طبيب السجن، فيسألني ماذا يلزمك من الأدوية الضرورية بأسلوب تدمري وكأنه يقول لي إياك أن تطلب شيئا. كنت أطلب الأدوية المهمة فقط، ومع ذلك فكثيرا ما كنت ألقى نصيبي عند الطبيب أو أثناء عودتي لأنني تماديتُ وأكثرُ من الطلب.

بعد يومين يعود الشرطة يحملون الأدوية النفيسة ليوزعوها علينا. في أحد الأيام خرجت أستلم دوائي وأنا أحمل صحنًا.. رمى الشرطي الأدوية على الأرض.. لَمَمْتُهَا ووضعتُها في الصحن، ثم مشى معي الشرطي إلى المهجع وهو يسبني ويتوعدني لأنني أكثرُ من جلب الدواء (صحن لمائتي شخص: كثير)، وفتح الباب لأدخل، واستغلّ وضعي أثناء دخولي وأنا ممسك بصحن الدواء، فباغتني برفسة ملء عزمه بمقدمة بوطه العسكري على بطني. وقعت على باب المهجع، وشهقت من ألمي شهقة مُصَيِّتة سمعها كل من كان في المهجع، وأحسستُ أن نفسي انقطع تماما وعضلات صدري قد تشنجت كلها، ووقعت مصفرا شاحبا ولم أستطع استعادة تنفسي إلا بعد برهة من الوقت، وبقيت شهور أعاني من الألم مكان تلك الركلة.

### حمدي لطفي؛

كان حمدي لطفي من مدينة حماة مريض قلب، وساءت حالته.. فحَصَّتُهُ ووجدتُ عنده علامات استرخاء قلب، قلت لناصر قطريب (رئيس المهجع)

- إنه بحاجة إلى مستشفى ووضعه خطير ويجب التبليغ عنه .
- عند التفقد رفع ناصر يده.. وكان شجاعا مقداما .. وقال بصوت عال:
- « حضرة الرقيب: أريد أن أكلمك».
- «تعال هنا».. «ماذا؟».
- «عندي مريض حالته خطيرة وبحاجة إلى مستشفى».
- وكان كأنما ارتكب ناصر إحدى الكبائر!
- «مستشفى يا...؟».
- وانهال عليه الزبانية ضربا ولطما وشتما، ودخل المهجع وعلى عينه كدمة وأذية بليغة كادت تؤدي بها .
- لم يعد بوسعنا شيء إلا أن نشاهد حمدي وهو يموت ببطء.. بعد يومين استفقنا صباحا فوجدناه قد فارق الحياة .
- حضر الجلادون صباحا كالعادة.. صاح ناصر: «حضرة الرقيب عندي واحد ميت».. دخل الرقيب.. نظر إلى حمدي ثم خرج .
- بعد نصف ساعة، حضر الشرطة مرة ثانية، قالوا أخرجوه في بطانية.. أخرجناه.. أخذوه ومضوا .
- بعد ساعة حضر الشرطة مرة أخرى.. فتحو الباب ونادوا «مسؤول صحي».
- هَرَعْتُ إلى الباب ووقفْتُ عنده، وقلتُ «حاضر».. وإذا بطبيب السجن قد حضر، فدار هذا الحوار:
- مسؤول صحي... ما قصة هذا الميت؟

- إنه مريض قلب سيدي.
- ولماذا مات؟
- لقصور في القلب سيدي.
- وهل كنتَ تعطيه الدواء بانتظام؟
- طبعا سيدي.
- قال مهدداً: "لتكونَ قصّرتَ عليه بالدوا ولاه".
- أعود بالله سيدي، كنتم ترسلون كل الدواء الذي نطلبه كاملاً، وكنتُ أعطيه إياه بانتظام، ولكن مرضه مستفحل، ولو كان المريض في أحسن مشافي أمريكا لمات.. نعم.. مرضه ليس له علاج بتاتا، إنه ميؤوس منه سيدي.
- بدت على لهجته علامات الرضا وقال: «كويس، تمام».. أغلّقوا الباب وانصرفوا، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون، ولولا أن الله ألهمني حسنَ الجواب لألصقوا بي تهمة قتله، وربما ألحقوني به!.. وقد صدق بشار (صدق وهو كذوب) حين قال: اكذب.. اكذب.. حتى يصدقك الناس.

### الأمراض المعدية:

عندما كنا نخرج إلى الحلاقة على أيدي البلدية، كان الحلاقون الذين بأيديهم أمواس الحلاقة ثلاثة أو أربعة، فكانت هذه الأمواس تمر على ذقون المئات وبين عدة مهاجع، فندخل المهجع والدم يسيل من وجوهنا، وكان ذلك سببا في انتشار مرض التهاب الكبد الذي ينتقل بالدم الملوث، وفي المهاجع التي حدث فيها المرض كانت الإصابات شبه شاملة لجميع أفراد المهجع بنسبة تزيد عن ٩٠٪، ولم ينجُ إلا بضعة أفراد، وأدى إلى وفاة

بعضهم بسبب قصور الكبد وظهور اليرقان والاصفرار (وأحيانا الاخضرار)، وآخرون خرجوا من السجن يكملون مسيرة حياتهم وهم يحملون كبد مريضا وتشمعا مزمنًا.

أمرٌ آخر زاد من انتشار الوباء.. استعمال سيرينغات الحقن العضلية المتكرر بين المساجين.. فكانت تصلني كميات محدودة جدا أو لاتصلني، فاضطر لاستخدام السيرينغ الواحد لعشرات المرات ولعدة مرضى.

في إحدى المرات طلبتُ من طبيب السجن سيرينغات، فقال لي لماذا تكثر من طلب السيرينغات؟

- ليس لدي كمية كافية منها سيدي.
- استعمل نفس السيرينغ.
- إنني أستعمله أكثر من عشر مرات.
- بل تستعمله ألف مرة.. "انقلع".

أصبنا بحالات جرب مخيفة، فلا حمام ولادواء مع ازدحام كعلب السردين، فكانت تنتشر فينا الدمامل والقشور الجربية إلى حدود غريبة ومخيفة غير معروفة في الطب، وأنا شخصيا قد عانيت منه الكثير وتطور معي إلى لوحات مستديرة بمساحة الليرة على سواعدي، ومع الوقت كانت تنفصل القشرة عن الجلد، ويظهر تحتها مستتق من القيح، مرض السل أيضا فتك بالكثيرين.

أذكر مرة انتشرت الحمى التيفية بيننا، وأصابتي العدوى، وصارت حرارتي كالجمر مع صداع شديد وألم بالبطن.. كان الدواء شحيحا جدا والمصابون كثر، فطلبت من أحد إخواني إعطائي إبرة "كلورامفينيكول"،

ولم يكن يسمح الحالُّ بأكثر من إبرة واحدة لكل مريض، علما أن مرض الحمى التيفية، كما هو معلوم في قواعد الطب يحتاج إلى علاج لمدة عشرة أيام على الأقل، فأعطاني الحقنة.. حقنة واحدة فقط.. وشُفيتُ بإذن الله (وإذا مرضت فهو يشفين).

### الحاجة أم الاختراع:

جاءني أحد الإخوة وقد انتشرت في جسمه آفات جلدية حمراء دائرية مقوسة، سببت له الحكمة الشديدة، ولما عاينتها توقعتُ أنها من أنواع الفطور. كان لا يزال في ذاكرتي، أن اليود مادة قاتلة للفطور، وأتيح لي بين يدي بضعة حبوب من دواء قديم كان يستعمل كمضاد للإسهالات يدخل في تركيبه اليود، واسمه Enterovioform فأخذتُ حبة وطحنتها جيدا.

كنا نجمع أتر السمن والزيت الذي يعلق على حواف أوعية الطعام (الطشت)، فوضعتُ ملعقة من هذا السمن في علبة صغيرة، ورششتُ الحبة المسحوقة معها ومزجتُهما، وأعطيتها للأخ، واستعملها، وكانت النتائج فورية بحمد الله، ودعا لي كثيرا، رحمه الله (استشهد)، وهكذا عالجتُ الفطور الجلدية بحبوب الإسهال.

### فيصل غانم

مدير السجن.. اسمه يدخل الرعب على سجناء تدمر.. لم نكن نراه أو نسمع صوته مطلقا، فمقامه أعلى من ذلك بكثير!

في حركة مفاجئة وغير مسبوقة، جمعونا في أحد الأيام في ساحة السجن، وكنا عدة مهاجع، وجلسنا نرتقب، وامتألت الأسطح بعناصر

الشرطة المسلحين في جلبة غير معهودة.

كانت زيارة تفقدية من مدير السجن "فيصل غانم" يتفقدُ فيها أحوال الرعية! طلع علينا السيد فيصل بقامته البهية وبدلته العسكرية، وألقى علينا محاضرة مختصرة في الوطنية، وبأننا نحن السجناء أمانة في رقبته، ثم سألنا هل نريد شيئاً، أو فيما إذا كانت لدينا شكاوى!

في البداية لم يتجرأ أحد على الكلام، ولما أصرَّ على أن يسمع مطالبنا قام بعض السجناء فوقفوا وتكلموا، فمنهم من اشتكى من سوء الطعام، ومنهم من طالب بالدواء، ومنهم من طالب بحريته لأن حُكِّمَهُ "براءة"، ومنهم من طالب بفتح الزيارات...

وعَدنا خيراً ومضى وانفضَّت المسرحية.

في اليوم التالي حضر الذئاب وصاحوا علينا: أين الذي يريد تحسين الطعام؟ وأين الذي يريد الدواء؟ وأين الذي يريد الزيارة؟ وأين.. وأين.. فأخرجوهم من بيننا وأعطوهم درسا في الأدب وحسن الطلب!

بعد فترة استجاب فيصل لطلب الزيارت، وبدأ أهالينا يصلون إلى السجن فعلاً.. لم يكن حُباً بالمساجين ولكن حبا بجيبه الذي امتلأ من الثمن الباهظ للحصول على الزيارة، والذي يُدفع إلى أمه في قريته (الهنادي في ريف اللاذقية) قبل الزيارة.

كان يُذاع الاسم، فيخرج صاحب الزيارة للقاء أهله ويلتقي بهم بعد فراق ثلاث سنوات لمدة لاتزيد عن ربع أو نصف ساعة، ويكون اللقاء طبعاً بحضور عناصر السجن وفي مكتب المساعد تحت المراقبة المشددة، ويعود

السجين بعد ذلك حاملا ما تبقى من أغراض الزيارة التي أحضرها أهله إليه، بعد أن ينهب الشرطة والبلدية ما يحلو لهم منها .. أما المساعد فيترفع عن هذه الأغراض، ويقاسم السجين حصته من المال الذي يستلمه من أهله، وفي أغلب الأحيان ينال السجين نصيبه من تهنئة الشرطة له بمناسبة الزيارة وهو في عودته إلى مهجعه، حتى أن معظمنا لم يعد يتمنى الزيارة. أبو مخلص عطوة -رحمه الله- كان من الذين أتاحت له مقابلة أهله في زيارة قبل استشهاده، وعندما عرضوا عليه إعطائه نقودا رفضها وقال لهم لاحاجة لي بالمال، لعلمه بحاجة عياله إلى النقود بعد اعتقاله وفقد معيولهم، وعلمه أيضا بأن هذا المال سوف يسرق منه، وكانت النتيجة أن لقي ضربا مبرحا بعد الزيارة، وعاد إلى المهجع والكدمات تملأ جسمه.

### الصاعقة

في صباح ذلك اليوم، ٢٤ كانون ثاني ١٩٨٣، وحوالي الساعة صباحا، كان دوري في عمل السخرة، حيث كانت أعدادنا كبيرة، وبالتالي كنا نوزع الخدمات، مثل إدخال الطعام إلى المهجع، وتوزيع الطعام في الصحن، والجلي، وتنظيف الأرض، وتنظيم الدور في الدخول إلى دورة المياه الوحيدة لمائة شخص أو أكثر، وسخرة صب الماء، فيصب أحدنا الماء للآخر بالإبريق ويحذر لعدم الهدر، حتى يتمكن الآخرون من تغسيل أيديهم أو الوضوء...

نعم.. كان دوري صباحا في سخرة صب المياه لإخوتي في المهجع، وإذ بالشيطان يقف على باب المهجع، ويفتح النافذة الحديدية الصغيرة، ويخاطب رئيس المهجع: اسمع هذه الأسماء، ومن كان موجودا عندك

فليجب بـ "حاضر"، وبدأ يقرأ الأسماء... إلى أن قال حسام الدين..  
تسمرت مكاني، وقع الكأس من يدي، وشعرت أن صاعقة نزلت على  
رأسي وأن قلبي انخلع من مكانه لهول المفاجأة.. خرجتُ من حجرة الحمام  
حيث كنت أصب الماء، وبحثت عن حسام في الناس، كان يقرأ القرآن مع  
صديقه في الجامعة سابقا "موفق".

كانت الأسماء كثيرة وعدد الذين صدرت أسماءهم من مهجعنا فقط  
أحد عشر شخصا، بينهم ثلاثة أطباء هم "محمد نينو" من إدلب، و"محمد  
عاكف رستم" من اللاذقية، وأخي حسام.

لم ندر لماذا أذيعت الأسماء، وفيم يخرجون!

قال الرقيب من الخارج بصوت آثم حاقد: أحضرهم أمام باب المهجع  
وليكونوا جاهزين للخروج.

انتابنا القلق.. كان يومَ برد قارس من أيام منتصف الشتاء في كانون الثاني.  
لم يدر هؤلاء الأحد عشر أين ذاهبون! فلبس كل واحد جميع ثيابه تحسبا  
لرحلة طويلة، لأننا كنا لانملك من الثياب إلا اليسير، فمثلا أنا كنت ألبس كنزتي  
الشتوية طيلة فصل الشتاء لمدة خمسة عشر عاما حتى ترققت وأصبحت  
كالورقة من الاهتراء، لأنني كنت لأملك سوى كنزتين استعملتهما طيلة مدة  
سجني، وكنا نخيط للحاف بشكل الكيس حتى يكون مفرشا وغطاءً لقلّة الحال.  
تقدمت من أخي وأعطيته "جاكيتي" الوحيد، وقلت له البسه فأبى،  
فأصرّيتُ عليه، فلبسه، قلت له عسى أن يكون الأمر خيرا إن شاء الله.. لم  
أذكر أنه علق بشيء، ربما كان يتمتم ببعض الأذكار.. كان صائما، تسحرت

معه في تلك الليلة لقميتين من الفروج المسلوق مع قطعة خبز لا تكفي طفلا صغيرا، طبعا ونحن مستقلقون في وضعية النوم، فالسحور والصلاة في قانون السجن جريمة قد تكلف صاحبها حياته.. وكان بفضل الله أول من حفظ كتاب الله غيباً، فخرج صائماً حافظاً.

اصطفَ رتل الأحد عشر سجيناً قرب باب المهجع ينتظرون قضاء الله.. لم يطل الانتظار، حضر حشد كبير من الشرطة، فتحو الباب، وكالعادة كما علمونا استدرنا جميعاً ووجهنا إلى الحائط في جمود كامل كالأخشاب، وقال الرقيب "لبرّه".

خرج الرتل وأغلق الباب الحديدي، أسرع أحد الإخوة يسترق النظر من ثقب صغيرة بالباب، قال "إنهم يقيدون أيديهم خلف ظهورهم"، فكان هذا نذير شؤم.. ثم عاد الرقيب وصاح "رئيس المهجع هات بشاكير- أي مناشف-" وفتح الباب وأخذ المناشف، فعاد الأخ المراقب وقال "إنهم يعصبون عيونهم بالمناشف"، فكان هذا نذير شؤم آخر.. ثم مضوا بهم..

جلسنا جميعاً وقد عقدت الدهشة ألسنتنا.. منا من راح يلهج بالدعاء ومنا من يقرأ القرآن، ومنا المترقب المذهول في وجل... طال الانتظار، وبدأ التهامس، فمن قائلٍ ربما محاكمة، وآخر يقول تحقيق، وآخر يقول يأخذونهم إلى دمشق.. وآخر صامت.. وكثرت التحليلات والتوقعات، ولكن كان هناك هاجسٌ مرعبٌ في نفس كل واحد منا، لم يجروُ أحد بالبوح به.

كان يوماً ثقيلاً جداً.. الثواني فيه بطيئة كالساعات.. أصبح الوقت ظهراً ثم عصراً، ثم أذن المغرب، ولا خبرٌ ولا أثر، نظرتُ إلى السماء من طاقة

السقف المشبوكة بقضبان الفولاذ الثخينة.. لا أنساها.. كانت ملبدةً بالغيوم  
رماديةً مكفهرةً قاتمةً حزينة.. أحسستُ أن السماء تبكي.. نعم لا أنسى  
هذا الشعور.. وأحسست أنها محتقنةٌ بقطراتِ المطر وتحبسُ دموعها..  
أحسستُ أرواحِ إخواني ترفرف فوقنا.

وقد قرأت فيما بعد أن بكاء السماء حق، فقد ورد في الأثر:

عن سُدي: لما قتل الحسين بن علي رضوان الله عليهما بكت عليه  
السماء، وبكاؤها حُمُرُتها.

كما ورد في القرآن الكريم أن السماء والأرض لم تبكيا على فرعون  
وقومه عند هلاكهم.. وبالتالي فإنها تبكي على المؤمنين:

(كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين.  
كذلك وأورثاها قوماً آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا  
منظرين) الدخان ٢٩.

الجميع أدرك الحقيقة، ولم أعد أذكر من الذي كسر جدار الصمت في  
ذلك اليوم الكئيب، ولكني أذكر حين قال أحدهم «الله يرحمهم».. لم أصدق ما  
أسمع! هل أنا في حلم رهيب أو كابوس؟ هل مات أخي حقاً؟ صباحاً تسحرنا  
معاً! أوهكذا تزهق الأرواح بكل بساطة وفي صمت؟ أوهكذا يفتالون الإنسان  
بكل برودة دم وأعصاب؟ أوهكذا ترتكب الجريمة باسم القانون؟ في لحظة أو  
دقائق يسرقون آمال الآباء والأمهات وتعب السنوات! لم أكن أصدق ماجرى..  
أقبل «أبو عبد الله» - وكان محبوباً وله شأن واحترام في المهجع -  
لعندي وأمسك بكلتا يدي وقال «الله يصبرك على مصيبتك» وبعد قليل

أُعلن لصلاة الجنّازة على الغائب، وأنا في ذهول تام.

صلينا صلاة الغائب على أحد عشر أخا كانوا بيننا قبل ساعات، أحدهم شقيقي.

قال «موفق» كنت أقرأ القرآن مع حسام، وكان آخر ما قرأه هذه الآيات من سورة آل عمران: «قل اللهم توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب».. سبحان الله.. فهل كان هذا الدعاء من حسام موجها إلى ربه قبيل اللقاء...

حان وقت المغرب وجلسنا لنأكل طعام الإفطار، قال أصدقائي: «أفطريا أبا هشام».. وضعتُ لُقمة في فمي وحاولتُ أن أبلعها، لم أستطع.. أحسست أنها علقت في صدري وكأنها جثمت على قلبي تكاد تخنقه.. كان حلقي مغلقا ومعدتي متشنجة، ولم تنزل اللُقمة، وانتهى إفطاري.

أخونا عبد الوهاب رسم تفاصيل هذا اليوم بريشته الدقيقة:

أحباء قلبي: هدني الحزن بعدكم	فصدري ثقيل، والفجيعة تقتل
تهبُّ رياح الموت صفراء فجأة	ومن غير إنذار: تحلُّ النوازل
ونادي نذير الشرا سماء إخوتي	فألقيت سمعي، والفضأد يُسجل
وأصبح وجهي للجدار ملاصقا	وجسمي بتمثال أصم مُبدل
أقول لأحبابي عساها محاكماً	لأدفن إحساسا عميقا يُشعل
شباباً رأوا جنات عدن في الرؤى	يقينا وضح الشمس تبدوا للدلائل

وجوهٌ من الفردوس نُضَرها الهدى  
صباحٌ عصيبٌ أفسد الشَّرُّ صفوه  
يُقَالُ: جَثِيًّا فِي الزَّوَايَا جَمِيعُكُمْ  
ويُخْرَجُ أَحْبَابِي وَتَنْهَالُ دَمْعَتِي  
وَنَادُوا: "بشاكيرا" لعصب عيونهم  
وهذي قيودُ الظلمِ شُدَّتْ بِمِعْصَمِ  
بقلبٍ تحدى سَطْوَةَ الظلمِ كُلِّهَا  
ويمضي إلى الأعوادِ نَسْرًا مُحْلَقًا  
شهيدًا إلى الفردوسِ، ذلك مطمحي

وَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَعَطْرٌ قَرْنَفُلُ  
كَثِيبٌ، بِأَثْقَالِ الهمومِ مُحَمَّلُ  
ويصطفُ رتلٌ والوداعُ مُعْطَلُ  
بكاءِ مريرا والعيونِ نواهل  
ولكنَّ نورَ الله أقوى وأمثَلُ  
لتقييدِ عملاقٍ يُزَفُّ وَيُقْبَلُ  
فراح من الأعماقِ حمدا يُهْلَلُ  
يُدَوِّي بتكبيرِ عنيفٍ يزلزلُ:  
وحسبي لدينِ الله أحياءُ وأقتلُ

### قوافل الشهداء

كانت حادثة استشهاد أخي ومجموعته التجربة الأولى لنا من حلقات الإعدام وذلك بعد سنتين من دخولنا سجن تدمر، وكانت قبل ذلك متوقفة لعدة أشهر لأسباب لا نعرفها، ولذلك فقد أخذ شهداؤنا على حين غرة ولم يتسن لنا وداعهم ولم يصلوا صلاة الشهادة والدعاء قبل اللقاء.

بعد ذلك توالى الحلقات بسرعة، فكانت تحضر لجنة السفاحين ثلاثة أيام في الأسبوع: كل سبت وإثنين وأربعاء، في الموعد المحدد صباحا، بين السابعة والثامنة، وبدون انقطاع لمدة ثلاث أو أربع سنوات، ويتكرر معها هذا المشهد، جولة على المهاجع، وقراءة أسماء.. ولكن كان يتسنى للإخوة الخارجين إلى الشهادة بعض الدقائق للوضوء وصلاة الشهادة والدعاء ووداع إخوانهم.

عشنا هذه السنوات في حالة ارتقاب مستمرة، فكنا لا ندري الدور القادم

لمن؟ ومن سيكون في القائمة القادمة، فكلنا مرشحون بقوة للإعدام في سجن هُدِرت فيه دماؤنا جميعاً.. وأنا شخصياً بقيتُ سنة كاملة أنتظر دوري ثلاثة أيام من كل أسبوع منذ الصباح الباكر، فأنوي الصيام وأصلي ركعتين لله صلاة مودع، وألبسُ الرث من ثيابي، على احتمال أن هذه الصلاة قد تكون آخر عهدي من الدنيا... ولكن الله لم يكتب لي الشهادة، ربما لم أكن قد وصلتُ إلى ذلك المستوى، فالشهادة هي اختيارٌ من الله لعباده، «وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلمَ الله الذين آمنوا منكم، ويتخذَ منكم شهداء».. فالله هو الذي يتخذ الشهداء.

والمواقف كانت كثيرة، فقد ودعتُ العشرات وهم يخرجون أمام عيني إلى حبل المشنقة، وكانوا كلُّهم هادئين، تعلقوا شفاههم بسمه رقيقة.

أذكر حين كنت أودع «محمد صوان» وكان طالب طب من خان شيخون، وكان صديقاً لأخي حسام، فعانقني والبسمةُ في وجهه.. فقلت له «يا محمد أبلغ أخي حسام مني السلام»، فأوماً برأسه وتبسم وقال «نعم»..

وأذكر كذلك حسين رفاعي طالب طب من خان شيخون، ومندر سراج طبيب أسنان من دير الزور، ومحمد سهل مخبري من اللاذقية.. والقائمة طويلة.. ونسيت أسماء الكثيرين.. وأعتقد أن عدد الذين خرجوا إلى ساحات الإعدام على مدى أربع سنوات بلغوا عشرة آلاف إنسان على أقل تقدير، إذ كانت الدفعة تتراوح وسطياً بين ٥٠ و١٠٠ ومرةً وصلوا إلى مائتين، بمعدل ثلاثة أيام في الأسبوع.

كان أحدهم يسارع إلى لبس أسوأ وأبلى ما عنده من ثياب، ليؤثر إخوته

من بعده بالبقية مما بقي من رَمَقٍ من ملابسه، فالحَيُّ أولى من الميت.  
 كان الجلادون يدورون السجن ابتداءً من الساحة الأولى وانتهاءً  
 بالسابعة، وهم يقرؤون الأسماء على المهاجع وذلك يستغرق حوالي ربع  
 ساعة، ثم يعودون بعد انتهاء الجولة، فيجمعونهم من مهاجعهم ويقودونهم  
 إلى ساحة الإعدام، ويُجلسونهم على الأرض، مقيدي الأيدي خلف ظهورهم،  
 معصوبي الأعين، وتبدأ عملية التنفيذ تباعاً، فوجٌّ وراء فوج، كلُّ ثمانية معا..  
 وقد يتجاوز عددهم المائة، ويستغرق الأمر ساعات.. فيا ترى كيف يكون  
 حالُ الذي ينتظر دوره في الأخير؟

كانت المشنقة بشكل الرافعة مزدوجة الجانبين، أي مثل كفتي الميزان،  
 يُخفضونها من جهة فترتفع من الجهة الأخرى، يضعون الحبل في عنق السجين  
 وهو واقف على الأرض، ثم يخفضون الطرف المقابل له إلى الأسفل، فيرتفع  
 من رقبته إلى الأعلى ويعاني من سكرات الموت حتى يموتَ خنقا وتسكنَ  
 حركته، بعد ذلك يقطعون الحبال، فيهوي جسد الشهيد ويرتطم بالأرض، ثم  
 يحضرون الوجبة التالية.. رحمهم الله جميعا وتقبلهم مع الشهداء.

بعد انتهاء المجزرة يأتي احتفال لجنة الضباط القتلة الذين يغادرون  
 الساحة وهم يشبكون أيديهم ببعضها ويدبكون ويرقصون ويفنون، على إيقاع  
 حشرجات الموتى وغرغرة الأرواح! كيف يُصنَّف هؤلاء أنهم بشر؟

وأخيرا تدخل الشاحنات العسكرية، وكان الذين في المهاجع المجاورة  
 لساحة الإعدام يسمعون صوت ارتطام الجثث بالأرض عندما يقطعون حبل  
 المشنقة فتُهوي إلى الأرض، وصوت ارتطامهم أيضا وهم يرمونهم أكواما في

الشاحنة العسكرية، ليخرجوا بهم ويدفنوهم في مقابر جماعية في الصحراء. أما «أبو عبد الله» ذلك الذي كان أول من عزاني بأخي فقد كانت له حكاية أخرى:

في الحقيقة، بعد استشهاد الدفعة الأولى والتي كان فيها أخي، وبصدمة المفاجأة أصابنا شيء كثير من الإحباط والحزن، وانھیاراً في المعنويات، فقد كنا نعيش في شيء من الأمل وترقّبٍ لفرج قريب بين ليلة وأخرى، أو نتنظر معجزة ما، وما كنا ندري أننا نواجه عدواً حاقداً إلى هذه الدرجة، أو أنها سوف تطول بنا السنوات، فجاءت هذه الضربة وسحقت آمالنا، وأصبحنا نحسّ أننا نتنظر الموت فقط، وهو محقق بنا، ونعيش على لاشيء، يودع بعضنا بعضاً..

هنا جاء دور أبي عبد الله، وهو من خان شيخون، فراح يذكرنا بما أعده الله للصابرين، وقصص الصحابة، وقَدَّرِ اللهُ المُحَكِّمِ في هذا الكون بأسلوب لطيف محبب.. واستطاع بمدد وتوفيق من الله، أن يشحذ الهمم والعزائم، وينهض بنا من هاوية اليأس والمرارة، لنحلّق في عالم الملكوت الأعلى، ونشعر أن الملائكة تعانقنا وتطيّبُ خواطرنا، وتستقبلُ شهداءنا بالحفاوة والتكريم، ورحنا نرنو إلى الصحابة والنبیین، ونستذكرُ أنما هذه الحياة الدنيا متاعُ الغرور، وأن مردّنا جميعاً، سواءً طال أم قصّر إلى الحاكم الذي يفصل بين عباده ويقضي بينهم بالحق.

واستطعنا بدفقات الإيمان وكلمات الله أن نتصرّ على أحزاننا وآلامنا، ونستمدّ طاقة عجيبة من الصبر تَبَتَّتْنا لسنوات طويلة... وعاد اليقين قويا

راسخا في قلوبنا .

كان أبو عبد الله أحد الذين أذيعت أسماؤهم للإعدام ذات صباح، هو وتسعة من إخوتنا في نفس المهجع، معظمهم من خان شيخون... تدافع الناس لوداعهم، وكالعادة صلوا صلاة الشهادة ودَعُوا الله أن يغفر لهم ويتقبلهم شهداء، وجلسوا ينتظرون التنفيذ!

ولكن هذه المرة لم يحضر الجلادون!.. ومضى الوقت والساعات.. ثم انقضى النهار وحلَّ الليل.. كان هذا الحدث لغزا جديدا علينا، لم نعرف جوابه! لماذا انصرف الجلادون، ولماذا لم يخرج أبو عبد الله ورفاقه إلى الإعدام؟ هل انقضى الأمر أم أنهم سيعودون غدا أو بعد غد؟ أسئلة كثيرة كانت تدور في أذهان الجميع، ولا أحد يملك الجواب!

نام أبو عبد الله وإخوته، ولست أدري إذا كان النوم قد أدرك مقلتهم؟ المهم أنه مضى ذلك اليوم ولم يحدث شيء.

ترقبنا اليوم الثاني فلم يحدث شيء أيضا، وكذلك الثالث ثم الرابع والخامس، حتى كدنا ننسى الموضوع!

كان أبو عبد الله يمشي بيننا، وقد حجز تذكرة السفر، ولكنه لا يدري متى الرحيل، ولكنه كان يتوقع أنه سافر قريب على الأغلب!

كان يقول لأصحابه الثمانية دعونا نبقي معا، فإننا ذاهبون معا في مركب واحد، ويضحك ويقول لنا: «إذا أردتم أن تنظروا إلى أحد من أهل البرزخ فانظروا إلينا، فنحن أهل البرزخ قدم في الدنيا وقدم في الآخرة».

«أبو مخلص عطوة» أيضا من خان شيخون كان من مجموعة أبي عبد

الله التي تنتظر موعدها مع الآخرة بين عشية وضحاها، وكان مدرسا،  
ولديه إحساسٌ مرهف ومَلَكَةٌ شعرية، وألَّفَ عدة قصائد، أنقل إليكم هذه  
الأبيات الحزينة، التي يتكلم فيها بلسان الولد الذي يسأل أمّه عن أبيه الذي  
غاب.. متى يعود؟:

فوسادتي ضجّت لقلب مُتَعَبٍ	أماه يكفيك البكاء على أبي
من قبليتك في الضحى والمغرب	إني أحسُّ النار تكوي وجنتي
أحبو عليها كلاعب في ملعب	أين الذي أكتأفه أرجوحةٌ
ومسامعي في لهفة وترقّب	قد طال وقت غيابهِ عن ناظري
يهواك يا أمي كما يهوى أبي	رُدِّي عليّ فإن قلبي مُتَعَبٌ

في إحدى الليالي جلسنا والوجوم يخيم علينا.. أراد أحد الإخوة المنشدين  
أن يخترق جدار الصمت، فاختر قسيده لأبي مخلص كان أبو مخلص قد  
صاغها سابقا لإخواننا الشهداء، وراح ينشدها بصوت عذب رقيق:

واستعدّي للقاء الشهداء	يا جنان الخلد تيهي عجا
كورود عانقت قطر الندى	إخوتي أرواحهم في مهجعي
نصب الأعواد في ساح الضدى	لم يُبالوا بعد وظالم
أمتطيتها حين أبغي السؤددا	إنما أعوادهم أرجوحتي

ألقيت نظري على أبي مخلص وهو يستمع إلى قصيدته التي كأنما هو  
ألفها لهذه الساعة، وهو يخاطب الجنة أن تنهياً للقاء الشهداء! كان مطرقا  
ساهما والدموع تترقرق صامته في عينيه.

بعد أسبوع حدث ما كنا ننتظره، جاء الجلادون وقرأوا الأسماء ولكن هذه

المرّة كانت نافذة.

والله لا أنسى وجه أبي عبد الله، وكأني أراه أمامي الآن: ضحكة عريضة، نور يضيء وجهه، حالة هدوء واطمئنان لا تصدّق.. وانكب أفراد المهجع عليه يقبلونه ويعانقونه.. ودّعْتُ أبا مخلص فقد كنتُ صديقا مقربا منه.. ودّعنا التسعة وودعونا، وخرجوا إلى لقاء ربهم.

### المواقف كثيرة وكثيرة..

محمد خير.. من حماة.. واحدٌ من الذين خرجوا أمامي.. صلى ركعتي الشهادة، ثم وقف أمامنا وقال: "والله إني أشم رائحة الجنة".. نعم لقد أقسمَ بالله أنه يشم رائحة الجنة.

أحدهم بعدما خرج إلى قبضة الشرطة.. سأله الشرطي وكان كل أفراد المهجع يسمعون: "هل تعلم إلى أين أنت ذاهب؟".. فأجابه الأخ بصوت راسخ ثابت: "نعم أعلم.. أنا ذاهبٌ إلى الجنة".

وأبو عبدو الحموي (أبو دان)، تأخر عليه الجلادون عدة ساعات.. وهو في الانتظار بعدما تُلِّيَ اسمه، وربما شُغِلوا بأمر ما، ولما طال الانتظار جلس أصدقاؤه يسامرونه، بل وقدموا له الفاكهة، فأكل منها وهو يمازحهم وكأنه ذاهب إلى نزهة..

سعيد: ذلك الشهيد الحي، تُلِّيَ اسمه أيضا في نفس الأوقات الموافقة لتنفيذ الإعدامات، صلى الشهادة، وجلس ينتظر، ومضت الساعات ثم الأيام والرجل يرتقب قدوم القتلة في أي حين، ولكن الله شاء له أن لا يعود إليه الزبانية، وأن يمنَّ عليه بعد ذلك بالفرج والخروج من السجن.. ثم تزوج

وأنجب الأولاد، وقد كلمته منذ فترة قريبة، وحدثني أنه بقي متأهبا في ثياب الإعدام لعدة أشهر، وكان يشد بنطاله برباط قوي حول خصره حتى لا تتكشف عورته بعد الإعدام، لدرجة أن الرباط حَزَّ في بطنه لفترة طويلة. مخلص قنوت صديقي في الجامعة والذي أطلقوا عليه النار في مشفى المواساة، كان يتوقع لحظة الشهادة، ولكنه أبى أن يسلم عنقه إلى حبل المشنقة، وعندما أذيع اسمه خرج من المهجع وهاجم الشرطة رغم عرجه.. وقاومهم، ولكنهم تكالبوا عليه، وأخرج أحدهم موسى من جيبه وذبحه أمام باب المهجع، وتركوه يتخبط في دمه، ثم ساقوه إلى حبل المشنقة ميتا.

يوسف عبيد.. شاب لطيف منخفض الصوت، هادئ، من عين الفيحة في دمشق، كان يعرف حكمه بالإعدام لأنه من التنظيم المسلح.. روى لنا أنه في إحدى مهماته كان ماضيا لاغتيال رجل قذر من المخابرات، وعندما سنحت الفرصة، ظهر الرجل وهو يحمل طفلا صغيرا بين يديه... لم يستطع يوسف تنفيذ المهمة، لأنه خشي أن يصيب الطفل.. نعم فشلت الخطة بسبب إنسانية هذا الرجل المؤمن والذي لقي ربه دون أن يقتل نفسا بريئة.

واليوم يُقتل الأطفال بالآلاف.. ذلك تاريخنا وهذا تاريخهم!

بسام بريك.. أما بسام، ذلك المجاهد البطل، فقد خرج إلى لقاء ربه ضاحكاً مسروراً، قال: "لاتحزنوا يا إخوتي فإنني مستوفٍ حقي منهم سلفاً".. (إذ أنه كان من الذين جاهدوا وحملوا السلاح وفعل بهم الأفاعيل) ثم وقف ينشد هذه الأبيات التي كان قد ألفها سابقا (فقد كان شاعرا أيضا، وله

قصائد أخرى):

يا نفسُ طيبي فاللقا قد حانا	طال اشتياقي للحبيب محمد
ورجالُ صدقٍ بايعوا مروانا	هذي الملائكُ والصحابةُ حوله
والحورُ تنشدُ خلفهم ألحانا	حفوا بساطَ الموتِ في شوقِ لنا
والعينُ تجري ريحُها ريحانا	والروضُ زلفى والكؤوسُ مليئة
يجزيك ربي نضرةً وجنانا	فاثبتْ فؤادي لا تبالِ بميتةٍ

تأملوا: رجل خارج إلى الإعدام يقف ليلقي الشعر.. ألقى هذه الأبيات الخمسة، لأن الوقت لم يكن يسمح له أن يكمل القصيدة، فالجلادون بالانتظار، وهأنذا أسوق لكم تنمة هذه القصيدة الرائعة التي يجب أن تكتب بماء الذهب، والمفعمة بقوة الإيمان والتّحدي والاستعلاء على الطواغيت:

من كان يبغى فليكن ريانا	إن الجنان على بحور مصائب
بجوار دنيا خائفاً وجباناً	ما فاز فيها من أناخ سلاحه
للكفر أصدقُ حجةً وبياناً	لغة الرصاص إذا أردت فصاحة
محدثاتها والجبابرُ سجّادُ رهباناً	فاصدح رصاصك في القلوب
فاسحق عظامي وليكن ما كانا	يا حافظاً الأنجاس لن أخشى الردى
لن تقضي إلا ما قضى مولانا	وابن المشانق من دمشق لسجننا
طلقتُ دنيا تابعا فرسانا	لما سلكتُ الدربَ أعلم أنني
بدمي وروحي مسلماً إخوانا	سأظل أمضي ما حييتُ مجاهداً
وشراك نعلي فوقكم تيجانا	ويظل رأسي للثريا شامخاً

تجربتي مع الشعر

بعد استشهاد أخي حسام صارت تدور في نفسي خواطرٌ كثيرة وتزدحم في رأسي الأفكار، وتتفجر في نفسي الأحاسيسُ.. ما بين المرارة بفقد الأخ وبين مرارة الواقع الذي نعيشه، فكنت أشعر أن مصيبتني مصيبتان، وكنتُ أرى آمالي تتحطم أمام عينيِّ ومستقبلي ينهار، بل حياتي كُلُّها معلقة بخيط رقيق بين السماء والأرض، والموت يُطبِّقُ عليَّ بين فكيه، ويكاد أن ينقض علي، فلا أجد ملجأً إلا بالعودة إلى حبال الإيمان واليقين، فأعود وأتمسك بها لأستطيع الثبات في هذه العاصفة الهوجاء..

كنت أتذكَّرُ أمي وأحاول أن أتخيل على أي حالٍ باتت بعد خسارة ولديها، وماذا عساي أقولُ لها عن حسام إذا لقيتُها يوماً!

بعد فترة بدأت أتمم بأبيات بسيطة، وسالت الخواطر على لساني تحكي حالي وتروي ما كنت أفكر فيه، ولم أكن بعدُ أعرف الشعرَ ولابحوره، فتدفقتُ مني هذه الكلمات بعفوية وحملتُ حرارة المشاعر التي تتابني.. تتطق بلسان الشهيد الذي يُصبرُ أمه ويمسحُ دمعتهَا:

أماه فاهنئي.. أماه فاسعدي

في جنة الخلود.. في الروض مقعدي

إنَّ ابنك الشهيد.. لم يرضَ أن يحميد

شعاره الوحيد.. بالهادي أقتدي

الأرضُ في ذهولٍ.. ماذا عسى تقولُ

والطيرُ والعقولُ.. من هول المشهد

في ساحة الإعدام.. مازلتِ الأقدامُ

وليشهد اللئام.. درس البطولة  
 درس من الضاء.. بالروح والدماء  
 بكت له السماء.. يا أرض فاشهدي  
 بعزة النسور.. وجراً النمور  
 وبسمة الثغور.. وقلب مؤمن  
 تقدم الأبطال.. كأنهم جبال  
 وعانقوا الحبال.. يا نفس فاشبتي  
 هناك في الفردوس.. أكرم به من عرس  
 لبائع للنفس.. يا حور زغردي  
 دعاكم المعبود.. بأصدق الوعود  
 إفطاركم ممدود.. بصحبة النبي

## الزيارة

ثلاث سنوات انقضت في غياهب تدمر، لانعلم عن دنيا الناس شيئاً..  
 وعالمنا محصور بين هذه الجدران الأربعة.. كنت أفكر في والدي.. يا ترى  
 هل هما لا يزالان على قيد الحياة أم فارقا الدنيا والحسرة تأكل قلوبهما؟  
 وكما قال أحد الإخوة في هذه المفارقة العجيبة:

أبتاه هل أرثيك أم ترثيني؟ هذا لعمري أعجب التخمين

في حزيران ١٩٨٤ أذيع اسمي.. خرجت لا أعرف أين وجهتي.. وكانت  
 الزيارة الأولى لي بعد ثلاث سنوات من اعتقالي، أما زيارتي الثانية فكانت  
 بعد عشرة سنوات من زيارتي الأولى!

كان كل همِّي منصبا حول التهرب من الحديث عن أخي حسام، فلاشك في أن أهلي سوف يسألونني عنه، ولا أعرف ماذا أجيب.. فإن قلتُ أنه استشهد فربما ينهارون وأقع في ورطة، وإن قلت أنه حي سأسبب لهم زيادة في المعاناة ومحاولات البحث عنه!

أروي تفاصيل الزيارة كما كتبها أبي رحمه الله:

زيارة أسامة في تدمر في ٦ حزيران ١٩٨٤

كان أهل المساجين يبذلون الغالي والرخيص للفوز بزيارة أسيرهم، وكثيراً ما كان الأهل يقعون فريسة المحتالين، فيذهبُ المأل الذي باعتِ الأمهات والزوجات مُصاعَهنَّ من أجل رؤية سجينهم هباء، وكأن البلاء بسجن أحبتهن غيرُ كافٍ حتى يُبتَلوا بالنصايين الذين هم الوحوش بعينها. وعدنا ابنُ عم فيصل (مدير السجن) باصطحابي وأم أسامة بسيارته إلى تدمر، وفعلاً نفذ وعده وأوصلنا إلى بيت رئيس سجن تدمر.

كنا سابقاً قد طلبنا زيارة ولدنا فأتانا الجواب بعد فترة من الوقت بأن أسامة فقط موجود، على عكس ما كنا نتصور أننا سنجد حسام في تدمر وأسامة في مكان آخر!

استقبلنا رئيسُ السجن وزوجته، ولما سألناه عن حسام، أجابنا أنه لم يدخل تدمر. وعندما أكّدتُ له أنه كان في تدمر بدليل أن جاراً لي قد التقى ابني حسام عندما كان هذا الجار في زيارة صهره في تدمر.. عاد وأكّدتُ (كاذباً) أنه لم يدخل تدمر مما جعلني في حيرة.

استقدم فيصل سيارة تابعة له فأخذتُنا عبر شوارع تدمر إلى ثكنة السجن.

اجتزنا أسوار الحراسة إلى أن وصلنا غرفة متواضعة وقلوبنا تخفق بشدةٍ للقاء فلذة الكبد، وتمنيتُ في نفسي لو كان ابني في أيدي اليهود، إذن لكان ذلك أرحم.

بعد قليل دخل الحارس ومعه أسامة، أسامة الوردية التي رعينها بقلوبنا.. أسامة ليس أسامة.. جسم نحيل، وجه شاحب، حليق شعر الرأس، طويل شعر الذقن كأنه لم يحلق ذقنه منذ أيام، يرتدي «بيجامة» لا يعرف لها لون، ينتعل شحاطة من الصنف الحقيقير.

عندما تقابلت نظرأتنا، وكنتُ وأُمهُ قد هيأنا أنفسنا لكبت مشاعرنا، بدا أنه كان حريصاً على أن يطمئننا، فبدأً بعبارة: «اطْمَئِنُوا اطْمَئِنُوا».. جرت المقابلة بحضور ضابطٍ صف قليلٍ الكلام بيدي شيئاً من اللطف، وكان الحذر بادياً على وجه أسامة، وعندما سألتناه فيما إذا كان قد اجتمع بأخيه حسام نفى ذلك طبعاً، حيث لم يكن جوابه صحيحاً ولا يتجرأ أن يذكر شيئاً عنه، ولم نكن نعرف أنه لاقى ربه شهيداً على أيدي جلادي السفاح الأكبر.. ظنننا أنه في سجن صيدنايا المميز عن تدمر. استغرق اللقاء حوالي نصف الساعة أعطيناه بعض النقود وطلب ساعة فأعطيته ساعتني.

عدنا إلى بيت رئيس السجن وجرى حوار بيني وبينه حول حرمان الأهل من الزيارة وقسوة هذا الحرمان خاصة للأم، فقال فيصّل يجب تحمّل ذلك في سبيل الوطن.. هنا قاطعته بانفعال: ولكن ما هو الوطن؟ الوطن ليس التربة التي نمشي عليها فقط، بل هو الشعب الذي يعيش في الوطن.. هو ابني وأخي وجاري..البلاء عام (ولايزال الكلام لأبي)

لا تخلو عائلة في سورية من سجين قريب، كأخ أو ابن أو زوج أو أب، فالمهم أن يكون الشعب السوري مقيداً برهائن غالية فلا يستطيع حتى الاحتجاج. في البناية التي كنا نقطنها كان هناك ضحايا غيرنا، فالطابق الأرضي كان يسكنه معلم مدرسة (أبو مصطفى).

اعتقل أبو مصطفى وترك نصف دزينة من الأطفال بدون معيل، وكانت ابنته الكبرى عروساً حديثةً ودُوهِمَ منزلها، وجرى تبادل إطلاق النار وسقط ضابط من المخابرات قتيلاً، واختلفت الأقوال عن العروس وأخت زوجها التي كانت في المنزل، فلم يُعرف هل قُتِلَتَا أم اعتُقلتا، وقيل أن العروس هي التي قتلت الضابط، الخلاصة أنه لم يعد يسمع عن البنيتين أي خبر.

كان ابن خالة أبي مصطفى يسكن مجاوراً للشقة، وكان يعمل في إصلاح البرادات، وكنت أشعر بأن من واجبي أن أمد يد المساعدة لعائلة أبي مصطفى التي فقدت معيلاًها، فاتصلتُ بهذا الشاب وطلبت منه أن يوصل مبلغاً من المال إلى عائلته، فأبى بأنفة وقال إنه يعمل ويستطيع إعالتهم.

لم يمض وقت طويل حتى اعتقل هذا الشاب، وبعد سنوات طويلة أفرج عنه بسبب مرض عضال ووصل إلى أهله ميتاً وقيل أن جسده كان يحمل آثار التعذيب. كان الإرهاب والخوف قد وصل حداً أن الناس أصبحوا يخشون التبرع لعائلةٍ سُجِنَ معيلاًها، لا بل يخشون توصيل مبلغ من المال إليهم، وهذا ما حصل معي عندما أردت أن أوصل معونة شهرية لعائلة في مدينة أخرى، فلم أجد أحداً يتجرأ أن يوصل المال لهم.

## مؤمن

بعد ان استقر بنا المقام وصارت الأيام تمشي على وتيرة ثابتة متكررة..  
في إحدى الأمسيات، وبعد أن انتهى مشوار اليوم من لقاءات الشرطة،  
وبدأنا نخلد إلى الليل والهدوء.. سمعنا باب الساحة الحديدي يفتح، ويقبل  
شرطي ويصيح: «أسامة هشام»..

تجمد الدم في عروقي.. إنه اسمي.. نعم.. ماهذه المفاجأة المسائية؟  
ماذا يريدون في هذا الليل؟

صاح رئيس المهجع: حاضر سيدي، إنه عندي هنا.

على الفور فتح الرقيب باب المهجع، ولم يمهلني ولا دقيقة واحدة، وقال  
« اخرج ».

سرتُ معه، لأدري إلى أين أسير؟ فكل الاحتمالات ممكنة.. وبدأت  
التساؤلات تدور في ذهني.. نقلٌ إلى دمشق أو فرع التحقيق.. ربما! أو..  
زيارة في هذا الوقت المتأخر.. مستبعدة!.. إعدام يا ترى؟ عادة حفلات  
الإعدام يجرونها صباحاً.. ماذا عساه يكون؟؟ كان القلق في أوجه.

وصلتُ إلى إدارة السجن وأدخلوني غرفة فارغة، وأجلسوني على الأرض،  
ورأسي مطرق.

تقدم نحوي أحدهم.. طبعاً لم أجرؤ على النظر إليه، ودخل في الموضوع  
بدون مقدمات:

- ما علاقتك بمؤمن صلاح؟

سؤالٌ أعادني إلى الوراء سنوات... يا إلهي ألم ينته عهد التحقيقات منذ زمن بعيد؟ ها قد عدنا من جديد! وسندخل في هذه الدوامة من جديد.. إنكار وتعذيب وانتزاع اعترافات.. يارب استويننا.. يارب حاجة..

- علاقة طلاب جامعة.
- أقصد علاقتك التنظيمية معه؟
- في الحقيقة كان مؤمن صديقي في الجامعة، وكان متدينا طيبا، ولقاءاتي به كانت عادية ومصادفة، ولا تتعدى حدود المودة.
- يبدو أنك لن تعترف.. وهوى بالكرباج الثقيل غلى ظهري، فأحسست بسيخ من النار يمشي في ظهري..

لمحتُ بأطراف عيني أقدام الشرطة حولي، وكانوا حوالي ثمانية أو عشرة.. لأستطيع أن أحدد العدد، ولكنهم كانوا كثر.. كنت أرى أحذيتهم العسكرية فقط.. كانوا كالذئاب الجائعة التي تتحين الفرصة للانقضاض على فريستها، وينتظرون الإشارة من المحقق حتى يبدؤوا عملهم.. أحسست أنها لحظة فصل بين الحياة والموت، فربما أكون بعد دقائق في عداد الموتى... استجمعت قوتي وشجاعتي وأحسست أن فرصتي الوحيدة أن أخاطبه بالمنطق فقلت له: يا سيدي هل تسمح لي بكلمة؟

- نعم؟
- إذا أردت الصدق والحقيقة فسوف أخبرك بها، وإذا أردت تعذيبي فسأقول لك ما تشاء.
- صمت برهة، ثم قال: أريد الحقيقة..

- سبحان الله.. لا أدري من أين جاءتني الحُجَّةُ السكينة والهدوء.
- فالحقيقة إذن يا سيدي أنه صديق لي في الجامعة، وزرتهُ مرةً بمناسبة العيد، وردَّ لي زيارتي في العيد التالي، هذا هو كل ما بيني وبينه.
- يعني ما في تنظيم بينكما؟
- أبدا يا سيدي.

اكتفى بهذا القدر من الأسئلة.. يبدو أنه اقتنع.. وقال أعيدوه إلى المهجع. لم أصدق أن التحقيق انتهى بهذا الشكل السريع واللطيف، وأن يقبل المحقق جوابي بهذه السهولة، وحمدتُ الله أن نجاني في هذا الموقف، وشعرتُ أن دعاء أمي كان يرافقني طيلة الوقت، وكذلك شكرتُ الله أنني لم أضطر إلى لصق تهمة التنظيم بمؤمن، فلو أنهم أثقلوا علي في التعذيب، لاتهمته أنه معي في تنظيم الإخوان، بل هو رئيس التنظيم والقائد المسلح، وأضيف ما يشاؤون، ولربما يلقي حتفه ما بين التحقيق والسجن!

حتى في طريق عودتي إلى المهجع، فإن الله سخر لي رقبيا كان مسالما نسبيا، وكنا نعتقد أنه نصراني، فلم يمسنني بسوء، بل كان يرددش معي.. وهكذا انقضت تلك الليلة بسلام، وكان ذلك من أفضال الله علي.

### تدمير والعصر الذهبي

جمعونا -المساجين من كل المهاجع- في الساحة الرئيسية في السجن، وجلسنا كل مهجع في ركن، ننتظر الحدث المرتقب الجديد! أطل علينا "بركات العش"، مدير السجن الجديد، وقال ارفعوا رؤوسكم وانظروا إلينا.. لم نتجرأ في البداية، فهذا أمر لم نعهده منذ دخول السجن..

كرر كلامه .. وبدأت ترتفع الرؤوس واحدا تلو الآخر، ورأينا أفراد الشرطة الذين ولغوا في دماثنا، كيف يحاولون التواري والتخفي من نظراتنا وقد بدا عليهم الغيظ والحرج الشديد .. ثم تكلم عن قوانين السجون، وأنه سيسعى لتأمين حقوقنا، ثم سألنا عن احتياجاتنا!

كان الدرس السابق مع فيصل غانم لايزال حاضرا في ذاكراتنا، فلم يطلب أحد شيئا!

كرر "بركات" السؤال، ولما لم يردَّ عليه أحد، أشار إلى أحد المساجين وطلب منه الوقوف، وكانت ثيابه رثة ممزقة، فقال له بغضب: "أنت يا هذا .. ماذا عندك من الثياب، أليست ثيابك هذه بالية؟" فقال: "ماعندي شيء سيدي" .. فقال "ولماذا لا تطلب؟" ثم تابع "من أيضا غيرُه يحتاج إلى ثياب؟" حينها دبت الجرأة في بعض منا، وبدأوا يرفعون أصابعهم، فالتفت إلى الشرطة وقال "سجلوا أعدادهم" وأحضروا لهم ثيابا .. والشرطة تحصي العدد من كل مهجع وتسجل.

ثم سأل ماذا تريدون أيضا؟ .. فمننا من طلب إتاحة الزيارات فأجاب أنه سيطلب لنا ذلك، ووقف آخر وقال له: "يا سيدي أنا محكوم براءة، فلماذا أبقى هنا؟" فقال له أنه سينقل أمره إلى الجهات المعنية وليس له علاقة بتنفيذ الأحكام، وبعضهم طالب بالدواء ..

كان معي في مهجعي رجل مسنُّ فوقف وقال: "يا سيدي إن ابني مسجون معي في هذا السجن، ولكنه في مهجع آخر، وأنا رجل مسنُّ، فهلا نقلته إلى مهجعي كي يعينني" .. فأمر الشرطة أن يتوجهوا إليه ويسجلوا اسم ابنه!

كنا مذهولين وفي ريبة، ماذا جرى؟.. هل يعقل أن هذه المعاملة تحدث في تدمر؟ هل هي مقدمة لإطلاق سراحنا؟ أم أن في الأمر مكيدة كالعادة! بعد يومين حضر الشرطة وبدأوا يوزعون بدلات السجن الزرقاء على المهاجع، كما مسجل في القائمة.

بعد ذلك فتح باب مهجعنا، وإذ بشابٍ غريب، يبدو واضحا من ثيابه، وحلاقة رأسه، وهزالة جسمه، أنه سجين مثُلنا، وكان هذا الشاب ابن ذلك العجوز، وكان لقاء الوالد بابنه لقاء ممزوجا بالفرح والأحزان. كذلك تحسَّن الطعام كما وكيفا، وأصبح الضرب بقدر محدود ومراقبا.

### اجتماع المسؤولين الصحيين

بعد أيام حضر الرقيب وطلب المسؤولين الصحيين لاجتماع، وكنت أنا الممثل عن مهجعي، وجمعونا في ساحة صغيرة وحضر "بركات العش" مدير السجن، وسألنا عن حاجاتنا الطبية.

أذكر أن أحد زملائي طلب لقاحات للأمراض السارية كالسل والتيفية، فأبدى بركات اهتماما وقال للرقيب اسأل عن إمكانية توفير لقاحات ضد هذه الأمراض، فذلك أفضل من إنفاق الأموال الكثيرة على علاجها! وصل الدور لعندي، فقال لي "وأنت ما يلزمك؟".

- يا سيدي لديّ أعداد كبيرة من الذين يعانون من أوجاع الأسنان، وكثير منهم يحتاج للقلع.

- ومنذ متى لم يحضر طبيب الأسنان إليكم؟



تسألوا السجناء عن طلباتهم.

يرسل حمار! من يقصد يا ترى؟ الشرطي بجلالة قدره حمار؟ وهو الذي يظن نفسه إلها بين المساجين، ويصول ويجول ويقول أنا أحيي وأميت!.. يا ساتر! وصلت الأمور إلى هذه الدرجة.. حمار.. إهانة كبيرة لسيدي الشرطي.. الله يلطف.

انفضّ الاجتماع وقادني شرطي إلى مهجعي وهو يتمتم: ”بدك طبيب أسنان يا كذا.. بتشوف بكره إذا رح خلي لك سن بتّمك“.

دخلتُ المهجع وتجمع أصدقائي حولي، وقصصتُ عليهم ما جرى، والتوبيخ الذي لقيته طبيب الأسنان والشرطة من مدير السجن، فأصابنا جميعا الوجوم.. وتحسّبتنا من انتقام الشرطة.

في صباح اليوم التالي أقبل الرقيب، سمعناه يفتح باب الساحة الحديدي، ويعوي صارخا: ”مسوّوووول صحي عالباب“.

تعوذتُ بالله، ووقفْتُ أمام الباب.. انفتح الباب ووقف أمامي الرقيب وقال وهو يكتم غيظه: ”أين مرضى الأسنان؟“.. فخرج سبعة عشر سجين من عندي يعانون من أسنانهم، وذهبوا إلى عيادة الأسنان وعادوا بعد ساعات، وتم بعون الله علاجهم ولو بشكل بدائي.

هذا الرجل (بركات العش) مع أنه ينتمي إلى الطائفة العلوية، فقد كان رجلا نزيها، إنسانا.. في قلبه شيءٌ من الإنسانية، اكتسب احترامنا، ولا يزال سجناءُ تدمر يذكرونه بخير، ولكن هذه الفترة الذهبية لم تستمر للأسف أكثر من أشهر قليلة، فهكذا تعاملٌ يبدو أنه لم يعجب الجهات العليا!

## تجديد البيعة

عام ١٩٨٥ كان موعد تجديد الانتخاب للقائد الخالد، وسرت شائعات قوية بأنه سوف يُصدر عفوا عاما بهذه المناسبة، وفعلا فقد أحسنا بالهدوء في تلك الفترة واستبشرنا خيرا، فخفّت ضراوة تعامل الشرطة مع السجناء.. وأحضروا لنا الحلويات عدة مرات، وكان هذا من عجائب السجن.. وكنا نسمع أفراد الشرطة يتهايمون ويتحدثون عن العفو العام، فشعرنا ببعض التفاؤل، بل إن بعضنا طار من الفرح، وبدأ يخطط لما بعد الفرج.. ولكن سرعان ما انقضت تلك الغمامة الكاذبة وتبين لنا أنها كانت سرايا خادعاً، ومضى الانتخاب ونجح الرئيس المفدى بنسبة ٩٩,٩٩% !

أخرجونا إلى الساحات وأمرونا أن نحتفل، ونهتف للرئيس، وهذا ما كان.. أخذنا نصيح والشرطة يراقبوننا، «بالروح بالدم نفديك يا حافظ».. «بالروح بالدم نفديك أبو سليمان».. وكان المقبور يكني نفسه بأبي سليمان. في اليوم التالي، مر الرقيب أمام المهجع، وقال اهتفوا للرئيس، ونحن داخل المهجع دون أن نخرج إلى الساحة.

كان معنا في المهجع رجلٌ مسنُّ اسمه «خالد طربوش» من منطقة الحفة باللاذقية، ويكنى بأبي سليمان، وكان مرحا بنفسية وروح الشباب، فحملناه على أكتافنا، والتفتنا حوله، وبدأنا نردد: «أبو سليمان شو بتريد لنساوي؟».. وهو يبتسم ويشير بيده إلى الذبح.

أخونا أبو سليمان هذا أصيب بعد فترة بمرض السل، فكان أبو جميل يمازحُه ويقول له: أنت على كنية خالد بن الوليد (أبو سليمان).. فأنت سيف

الله، وأنت مسلول لأنك مصاب بمرض السل.. إذن أنت سيف الله المسلول! أنقل عن أبي -رحمه الله- لقاء والدتي مع المقبور حافظ في مناسبة تجديد الانتخاب له، والضجة التي أثرت حول إطلاق سراح الموقوفين والعفو العام:

موكب النساء الحزاني في ٣٠ كانون الثاني من عام ١٩٨٥

اجتمعت حشود من النساء من أهل المساجين من كل أنحاء سورية في دمشق بمناسبة الاستفتاء على تجديد ولاية الطاغية، وتقدمن إلى قصره في مسيرة تهتف بحياته يستعطفنه لإطلاق سراح الأسرى، واستقبل وفداً منهن - كانت أم أسامة إحداهن- ووعدهن الكاذب خيراً قريباً، وما كان ذلك إلا خدعة لتمرير الاستفتاء.»

### سنوات طوال ثقال

وهكذا توالى علينا السنون طوالاً ثقالاً، ونحن في «غيايات الجب»، لانعرف ماذا ننتظر، ولا لماذا نعيش، ولا ندري ماذا تخبئ الأقدار بعد؟ تعصف بنا الشدائد ورياح المحن، وكلما أطلت علينا بارقة أمل نطير معها في أحلام الحرية، ثم لا تلبث أحلامنا أن تتحطم على صخرة الواقع المرير، ونرى حريتنا أبعد من النجوم وأقرب إلى المستحيل.

عشر سنوات لانعلم عن أهالينا خيراً.. لاندري أأحياء هم أم أموات، وعلى أي حال يصبحون ويمسون.

أما حال أبي فهو يحدث عن نفسه:

كنت في مهمة في فرنسا، وكان مقر الاجتماعات في ضاحية اسمها

«نيس» على الشاطئ اللازوردي الفرنسي.

في الميكروباص السياحي الذي كان يتلوى على الطريق الساحلية الذهبية، تدفقت مني هذه الأبيات:

وَحَاطَتْنِي بِرَقَّتِهَا	غَزَّتْ قَلْبِي بِطَلْعَتِهَا
فَهَلْ أَرْنُو لِدَعْوَتِهَا	جَمَالُ هَزْأَعْمَاقِي
وَفِي عَيْنِيهَا مَا يُسْكُرُ	دَعْتَنِي لِلْهُوَى «نَيْسُ»
شِرَاعُ الزُّورِقِ الْمَبْحَرُ	عَرُوسٌ مِثْلُ غُصْنِ الْبَانُ
أَنَا وَالْكَوْنُ مِنْدَهَشُ	يَكَادُ الْقَلْبُ يَرْتَعَشُ
لَأَنَّ تَهْنَأَ وَتَنْتَعَشُ	فَهَلْ لِلْأَنْفُسِ الْجَرْحَى
لَكُمْ آهَاتِي يَا وَلَدِي	حَيَاتِي عَذَابُ يَا كَبْدِي
وَأَنْسَى مِنْ هَمِّ سُنْدِي	أَنْسَى أَسْمَى أَحْلَامِي
فَلَا مَرَأَى وَلَا مَسْمَعُ	أَصْرَتْ عَيْنِي أَنْ تَدْمَعُ
دَعْوَتُ اللَّهِ أَنْ يَرْجِعَ	لِعَهْدٍ كَانَ كَالْأَحْلَامِ
وَفِي سِرِّي وَفِي حَزْنِي	دَعْوَتُ اللَّهِ فِي عَلْنِي
وَيُطْفِي فِي الْجَوَى شَجْنِي	لِيَجْمَعَ بَعْدَ تَفْرِقَةٍ
وَرَبُّ الْعَرْشِ يَحْمِيكُمْ	أَنْجِيكُمْ أَنْجِيكُمْ
بِنَفْسِي أَلْفُ أَفْدِيكُمْ	وَأَنْتُمْ يَا سَنَا قَلْبِي

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَهُ وَيَحْسِنَ إِلَيْهِ كَمَا أَحْسَنَ إِلَيَّ وَإِلَى إِخْوَتِي، وَيَحْتَسِبَ صَبْرَهُ وَبَلَاءَهُ فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ.

عَشْرُ سِنَوَاتٍ مَضَتْ لِأَنْعَرَفَ إِلَّا الْمَاءُ السَّاحِنُ الْمَلْتَهَبُ فِي الصَّيْفِ،

والماء المتجلد الذي يقص الأصابع في الشتاء.  
 عشرة شتاءاتٍ لم نعرف فيها دفء المواقد.  
 عشرُ سنواتٍ نفترش الأرض ببساط رقيق، وملتحف غطاءً نتشارك عليه،  
 ونسينا شيئاً اسمه الكرسي أو الأريكة.

عشرُ سنواتٍ ننام كعلب السردين متلاصقين، للواحد منا عرض عشرة  
 سنتيمتراتٍ ينام فيها، وقد أجرى أستاذ رياضيات معنا عملية حسابية بسيطة،  
 وتوصل إلى أن لو كل سكان الأرض ناموا على هذه الطريقة لوسعهم لبنان!  
 عشرُ سنواتٍ لم نعرف فيها ظلامَ الليل وهدوءه، فالمصاييح منارة في  
 المهجع على مدار الساعة (للمراقبة)، والحارسُ يتبختر فوقنا بقرعة  
 حذائه وسلاحه.

عشرُ سنواتٍ من الجوع، ننتظر مجيء الخبز كما ينتظر الطفل العيد، ثم  
 نجتمع لنرى كومة الخبز العسكري الحجري المدور التي وصلتنا وحجمها، لعل  
 يكون نصيب الواحد منا أكثر من نصف رغيف ليوم كامل.. وغداؤنا كلَّ يوم  
 البرغل الممزوج بالحصى، حتى كرهت البرغل، وما زلت أكرهه إلى يومي هذا.  
 عشرُ سنواتٍ لم يعرف أحدنا كيف صار شكله، ويحاول أن يُعملَ مخيلته  
 وهو يتحرى خياله في طبق الشاي الواسع، فلا زجاج ولا مرايا، وكل الذي  
 نعلمه أننا حليقي الرأس (على الصفر والحلاقة كل أسبوع).

عشرُ سنواتٍ لا كتابٌ ولا قلمٌ ولا ورقةٌ ولا مذياعٌ ولا تلفاز.

عشرُ سنواتٍ لا نعلم عن دنيا الأنام شيئاً.

عشرُ سنواتٍ نسينا فيها أن هناك جنس آخر اسمه الأنثى!

سمعنا عن إنشاء سجن جديد في صيدنايا، وأنه للسياسيين، وأنه سجن خمسة نجوم، فيه تلفزيون وراديو، وزيارت للأهل، والكلام مسموح، ولقاءات المساجين بين بعضهم متاحة، وطعام مقبول، والأهم أنه لا يوجد فيه ضرب وتعذيب، فصار حلمنا أن ننقل إلى هكذا سجن ترفيهي لا يوجد فيه عنصر الرعب.

طالت المحنة واشتدت وطأة السجن علينا، لدرجة أنني صرت أفكر في التخطيط لعملية هجوم جماعي على الشرطة لعل بعضنا ينجو، فإما حياة وإما موت، ولو كلف قتل الكثيرين، فنحن ميتون على جميع الأحوال، ولعل هذه المعاناة تنتهي بالموت أو بغيره، ولكن لم يوافقني على الفكرة أحد.

الأحاسيس المشتعلة وطول المعاناة وحفظ القرآن والعلوم الشرعية والتمكن من اللغة العربية، فجرت لديّ طاقة الشعر، فصرت أسكب مشاعري وأحاسيسي في قصائد، وكانت هذه إحداها:

تمورُ بخاطري الفِكرُ	وصدري كادَ ينفجرُ
فلا الأَقلامُ تُسعِفني	ولا الأشعارُ تنحدرُ
أراها محنةٌ ثَقُلَتْ	وألقتُ كلَّ ما تَزِرُ
ومألوانها مما	رآه الجن والبشر
رُمينا قعرَ مظلمةٍ	فلا حسُّ ولا خبر
كأنافي مقابرنا	بهأنطوى وندثر
فكم ذا الوجدُ أرقني	وكم أضناني السهر
أناجي الله في حزن	ويسمع همستي القمر
فترثي لي نُجيماتُ	ويبكي الطير والحجر

وكم هاجت بنا فتنٌ  
يُدمدمُ في معاقلنا  
ويَحْطَفُ ثُلَّةٌ مِنَّا  
ويروى فتكهُ أثرٌ  
جراحُ الجسمِ قد تشفى  
يفجّرُ غيظًا ثاراتِ  
ولن تُشفى جراحاتي  
إلى يومٍ به سيفي  
وأفعى البعثِ غادرة  
كنا فرعونٌ سورية  
يُجدُّ السيرُ مرتحلًا  
ونعلنها مدوية

”وأصبح فؤاد أم موسى خاويًا“

كلما كنت أمر على هذه الآية الكريمة كنت أتذكر والدتي، التي كانت مفرطة الحنان، وأتذكر حزنها حين كنت أسافر من أجل دراستي في الجامعة، وكيف كانت تبدو واجمة وتقول لي ”اجلس يا ابني أمامي حتى أراك قبل السفر“، أما لحظة الرحيل والفراق فقد كنت أكرهها، ويصيبني الغم والكمد عندما أرى الدموع على وجنتيها.. هذا كان حالها في سفري لشهور، فكيف يكون حالها في سجنني لسنين!

كنت أتوقف عند الآية، وأتساءل على أية حال باتت هذه الأم المسكينة،

فإذا كان حال أم موسى التي فقدت ولدا واحداً أن أصبح قلبها خاوياً، بالرغم من وعد الله لها بأنه سيرده إليها (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)، فما بالكم بالتي فقدت ولدين اثنين في ضربة واحدة، ومصيرهما في علم الغيب! كنت أدعو لها بالصبر وأسأل الله أن ينزل السكينة على قلبها.

و لكن هذا الجزء من الآية (إنا رادوه إليك) كان يُشعِرني بالاطمئنان وبيعث في نفسي الأمل ويلهمني مزيداً من الصبر.

هذه أبيات نظمته لأمي، وأهديها لكل أم ضحت وقدمت وعانت من حكم

آل الوحش والوحوش:

أماه رمز السخاء	أماه نبع العطاء
في صبحه والمساء	أنت حديث قلبي
ودمعتي في دعائي	أنت نشيدي ولحني
مصانع العظماء	أم الفهود وأنت
مدارس الشهداء	درب الجنان وأنت
توصية الأنبياء	رضاك فرض وأنت
يحدوك نور الرجاء	ربيتني في مهادي
كنجمة في السماء	لكي تريني أميراً
لم تنعمي بالهناء	لما رحلت لعلمي
كي لا يُشاب صفائي	خبأت دمعي عني
قلبك عند اللقاء	وكان يسعى جذولاً
كانت لجرحي دوائي	ولمسمة من حنان

كادت لنا في الخفاء	لكن أصابعُ سوءٍ
مجبولةٌ بالدماء	لكي تصيرَ طريقي
يُشدي بدرسِ الفداء	وكي تصيري نشيداً
للصبرِ حسنِ الجزاء	أماه صبراً جميلاً
والفوزِ بعدِ العناء	والليلِ بعده صبحٌ
أماه دارُ البقاء	فاصطبري ملتقانا

### الفيل:

حضرتُ دفعةً جديدةً من الشرطة، فابتكروا طريقةً جديدةً في تعذيبنا، إذ كان أحدهم بدينا جداً كالفيل، فأحب أن يختبر رشاقته على صدورنا ويطوننا، فكان يأمر أحدنا أن يستلقي على ظهره، ثم يهرع هذا الفيل ويقفز على صدره، فيهشم أضلاعه.

أحد الإخوة ممن تعرضوا لهذا الأسلوب رأيتُهُ في تلك الليلة.. كان يعتصر ويبكي من شدة ألمه، لاشكَّ أنه كان مصاباً بعدد من الكسور في أضلاعه.. آخرون ماتوا.

مرةً كنا في التفتق كالعادة، وإذ بشرطي يضربني على كتفي ويجرُّني خارج الرتل، ويأمرني بالانبطاح، فانبطحتُ وأنا حذر متوجسُّ أن يقفز هذا الفيل فوقي، وما أن ركلني حتى نهضتُ واقفاً، وتكرر الأمر عدة مرات، وثار غضب الشرطة إذ كنت أمتثلُ للأمر وأنبطحُ ثم سرعان ما أهبُّ واقفاً.. كان ذلك بمثابة تمردٍ ورفضٍ للأوامر توجب أقصى العقوبات.

كنت أدرك خطورة موقفي ولكني فضّلت أن أموت واقفاً.

غضب الرقيب وبدأ يدفعني لكي أعود فأنبطح ويقضي عليّ، وأقبل شرطي آخر يساعده لرميي على الأرض وأخذا يدفعانني بقوة، وأدركتُ أن ساعتني قد حانت لامحالة وأني سأموت ضربا وركلا، وتوجهتُ إلى الله أن يتلطف بي ويكون موتي سهلا وأن يعينني على التعذيب وسكرات الموت، ويختمها على الإيمان.. ولكن... تدخلت يد العناية الربانية.. فجأة أفلتوني، كأنما أمرُ ما قد شغلهم، فانصرفوا بسرعة والرقيب يتوعدني.

في اليوم التالي خشي عليّ رئيس المهجع من انتقام الرقيب فأبقاني أثناء التفقد مع المرضى داخل المهجع، وعندما مر الرقيب وسأل عني أجابه إنه مريض.. ويبدو أنه كان في عجلة من أمره.. وهكذا حجبه الله عني مرة ثانية فمرّ اليوم الثاني بسلام.

كنت أسأل الله اللطف والسلامة، وكنت أحسُّ أنني أعيش بين مخالب موت شرس متربص يوشك أن ينقض عليّ، فإنهم لن ينسوني..

قُرأتُ حنانَكَ ربي جلياً	وحفظَكَ في النائبات العتية
فكم داهمتني خطوبُ جسامٍ	وكم طوقتني ذئابُ المنيّة
وسُدّت بوجهي دروبُ الخلاصِ	وأحكم قيدي وضاقَت عليّ
ولم يبقَ غيرُكَ ربي رجاءاً	فناديتُ : عبدي إليّ إليّ

### مع الكتاب

في اليوم الثالث يشاء القدر أن يمرّ رقيب آخر على مهجعي ويسأل رئيس المهجع: «كم مسؤول صحي عندك؟» فأجابه: «اثان».. فقال: «أخرج الثاني».. وكان الثاني أنا.. حملتُ كيس أغراضي وخرجتُ، فمشى بي وفتح

باب مهجع آخر وأدخلني إليه، وكان مهجع الكتائب.. وهكذا ضاعت قصتي عن الشرطة وكان ذلك من عجائب الطاف الله علي.

كان من جملة السجناء في تدمر فئة صغيرة من حزب الكتائب اللبناني، حوالي عشرون شخصا، خصّصوا لهم مهجعا ووضعوهم فيه، ولم يكن بينهم طبيب أو أحد عنده إلمام بالشؤون الطبية، فقررت الإدارة أن تحضر لهم طبيبا من المهاجع المجاورة.

أقبل أفراد المهجع وتجمعوا حولي ليتعرّفوا على الزائر الجديد، ورحّبوا بي. كان المهجع صغيرا نسبيا، وشبه خالٍ، فهذا العدد القليل لم أشاهده منذ فترة طويلة، عشرون شخصا في غرفة كبيرة.

اعتقل هؤلاء الأشخاص أثناء اجتياح حافظ الأسد للبنان والذي استمر حوالي عشرين عاما، تخللها فترات مقاومة من بعض الفئات اللبنانية، كان من جملتها حزب الكتائب.

كانوا من حزب الكتائب اللبناني، وكان بينهم أربعة مسلمون والباقي نصارى، وبعضهم لبناني الجنسية ومعظمهم سوريو الأصل والجنسية عاشوا في لبنان.

كانت معاملة هذا المهجع متميزة عن باقي المهاجع، فكانت تصلهم كميات وافرة جدا من الطعام، تفوق حاجتهم بأضعاف، فكانوا يرمون الفائض من الأرز والبرغل والخبز والمرق في مصارف التواليت.. والحقيقة أنني عرفت معنى الشبع بعد سنوات من الجوع، بينما كان السجناء في المهاجع المجاورة يعانون من الجوع الدائم، ويحرصون على حبة الأرز وكسارة الخبز

ويلعقون اللبن من الأرض عندما يسيل من الطبق أثناء إدخاله إلى المهجع. كانت مقابلات الشرطة لهم في التفتقد وغيره سلمية وهادئة من غير ضرب أو أذى أو حتى شتيمة، أما في التنفس فكنا نخرج إلى الساحة منتصبين القامة ونمشي بهدوء في الهواء الطلق والشمس لمدة نصف ساعة ونعود أدراجنا.

أحيانا كان يتزامن تنفسنا مع مهجع مجاور في نفس الساحة، فكنت ألمح إخواني جاثمين على الأرض، مطرقين، مستديرين إلى الحائط، والشرطة يدوسونهم ويركلونهم ويضربونهم، وصرخات الألم تهدر في أرجاء الساحات، فيحز وضعهم في قلبي، وأفكر أنه هكذا كان حالي قبل أيام.. وأعتصر ألما وحرنا، وأحمدُ الله أن نجاني من العذاب، وأسأله أن يرفع الضيم عنهم.

لم تمض فترة طويلة حتى بدأ بعضهم في الكيد لي وتآليب أفراد المهجع ضدي بحجة التحيز الطائفي، أي أنني أهتم بالمسلمين منهم، وأخصهم بزيادة في الدواء، وبحجة الدعوة إلى الإسلام وتحفيظ القرآن، حتى أن أحدهم وهو أيضا أسفهم «الياس» اشتكى إلى الشرطة، وادّعى أنه مظلوم، وأني لا ألبي حاجاته من الدواء وتسبب لي بعقوبة «الدولاب» من الشرطة، عليه من الله ما يستحق.. وكثيرا ما كان يعتريني الاشمئزاز من وجودي مع هذه المجموعة الكارهة لي والحاقدة.. والطريف أنهم كانوا يمتنون عليّ أن أحضروني إليهم وخلصوني من بطش الشرطة، وكأننا هم الذين اختاروني أو أنني نزلتُ بيتهم.. فكنت أكره مجيئي لعندهم وأتمنى لو أنني بقيت مع إخواني في مهاجعهم يصيبني ما يصيبهم، ولكني كنت سرعان ما أغير رأبي عندما

أسمع صدى الصرخات والتعذيب الهمجي الوحشي يرتجُّ في الساحات .  
حتى علاقتهم مع بعضهم كانت سيئة، وفي نزاع دائم على أتفه الأمور،  
فكانوا يتنازعون على اللقمة، وكانوا شرسين في شجارهم، ويتراشقون بالألفاظ  
النايبة والسوقية، وترتفع أصواتهم بشكل مخجل .. حتى المسلمون منهم، لم  
يكونوا أحسن حالا ولم أسلم من شرهم، وتعرضت لعدة مواقف صعبة.

كنت غالبا أضطر إلى تفادي المشكلة، وقد أسرَّ إليَّ أحدهم (جورج)  
وحذرني أنهم اتفقوا على تقديم شكوى ضدي أنني أسب الرئيس وسوف  
يشهدون مجتمعين على ذلك زوراً وبهتاناً، وطبعا شهادة كهذه في مكان كهذا  
كافية لقتلي.. وقال لي حينذاك «شاهدان اثنان يوصلان الرجل إلى حبل  
المشقة».. ولكن اللطف في القدر استمر في مرافقته لي، فبعد أيام فتح  
الباب، ودخل علينا سجينان بتهمة إسلامية، وقد أحضرا إلى هذا المهجع  
من باب التوصية بهما، على اعتبار أن هذا مهجع «المدللين»، فقويَّ موقفي  
وتراجعوا عن مخططهم الخبيث.

روى لي «جورج» هذا أنه قضى فترة في فرع التحقيق في زنزانة مع ثلاثة  
من المسلمين، وقد أظهروا له المودة والتعاطف، فكانوا يؤثرونه في الطعام،  
فيتباطؤون في الأكل حتى يفسحوا له قدرا أكبر من الطعام الشحيح...  
وكان لديهم علبة حلاوة فارغة، خصصوها للتبول باعتبار أنه لا يوجد  
مرحاض في الزنزانة، فكانوا يجورون على أنفسهم ويتماسكون حتى يخرجوا  
إلى الحمام، ويتركون العلبة متاحة لهذا الرجل يقضي فيها حاجته.  
ذهل الرجل بهذا الإيثار في موضع لايسمح بهكذا تعامل، واعتنق الإسلام

وبدا يصلي ويحفظ القرآن، وتكنى بـ «أبو عكاشة».

فرح السجناء به كثيرا وأكرموه وأصبح محطَّ حديثهم واهتمامهم، فكان كلما حفظ سورة باركوا له وهنأوه، وروى لي أنه حين حفظ سورة القيامة فرحوا بذلك وتناقلوا الخبر وقدموا له ما تيسر من الفاكهة كهدية.

عندما أُحضر إلى تدمر واجتمع مع رفاق حزبه انزعجوا من إسلامه وضيقوا عليه الخناق، وأعلنوا عليه الحرب حتى أجبروه على التراجع، ولكن عندما حضرتُ أسرَّ لي بالأمر، وصار يحفظ مني القرآن سرا.

## جونى

جونى ضابط فى الجيش السورى، تعرض لمحاولة اغتيال من قبل الإخوان المسلمين فى حلب ونجا منها بأعجوبة، إذ التبس الأمر على القاتلين، وقُتل شخص آخر كان موجودا بالصدفة فى بيته أثناء العملية عوضا عنه (على روايته).

كان جونى مهذبًا خلوفا ودودا، ومن طرائف الأقدار أن توطدت بينى وبينه صداقة قوية، حتى أنه كان شريكى فى الطعام لمدة سنوات.. والحق يقال.. أنى لم أرَ منه إلا حُسْنَ الخُلُقِ والمعشر، وروى لى تفاصيل حياته وعائلته.. وكان متدينا يصلى.. وكنت عندما أنتهى من الطعام أقول مازحا: «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»، فيقول: «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا ولم يجعلنا مسلمين» فنضحك سوية..

كان خال جونى من اللاذقية ومتواجدا فى لبنان، فكلفه حزب الكتائب

بنقل رسالة إلى جوني في سوريا يعرضون عليه الانضمام إلى حزب الكتائب والتعاون معهم.

أحدهم وشى على الخال.. والرسالة لم تصل إلى جوني إطلاقاً.. (وهذا يدل على أن المخابرات الأسدية كانت مخترقة حزب الكتائب) وألقي القبض على الخال على الحدود وكُشفت معه الرسالة، وعلى إثرها اعتقل جوني الذي لم تصله الرسالة ولم يعلم بأمرها أصلاً!

النتيجة كانت أن الخال أعدم في تدمر.. وجوني مكث في السجن ما يزيد عن عشر سنوات بتهمة أنه قابل للانتساب إلى حزب الكتائب!.

كان «جرجس» يلعب دور الكاهن الوصي على المسيحيين في المهجع، ويعطي التوجيهات والتوصيات الدينية، ويعتبر نفسه أنه يحمي حمى الصليب وأتباعه، وقد صرَّح بأنه كان يطمح أن يكون راهباً.. وبالمناسبة فإنني لست ضد الرهبان ولا الكهَّان، ولكن ضدَّ التعصب الأعمى والحقد البغيض.

«الياس» الذي اشتكى عليَّ إلى الشرطة، كان أحد التافهين الفارغين الذين استخدمهم جرجس وغيره كرأس الحربة ضدي، وقد نجحوا في مأربهم عدة مرات وألحقوا بي الأذى.

دار شجار مرة بيني وبين «الياس» واحتدَّ الحوار، فانبرى جرجس للدفاع عن الياس وتهجم عليَّ بالكلام.. وهنا كانت المفاجأة التي لم أكن أتوقَّعها إذ تدخل جوني ورد على جرجس قائلاً: «لماذا تتدخل في المسألة وتتحاز إلى الياس يا جرجس؟».

فصاح جرجس منفعلًا وقال باللهجة اللبنانية: «الياس حَيِّي» -أي أخي

في الدين-.

فأجابه جوني: «وأسامة خيّي».

انتهت المشكلة عند هذا الحد، وكان ذلك من أشجع وأنبيل المواقف التي شهدتها، إذ وقف هذا الرجل وواجه أبناء دينه من أجلي، وكان نزيها لم ينجر إلى التعصب الديني لينحاز إلى أبناء دينه.

هذه شهادة حق تقال في جوني وغيره، وأنا أفتخر بوجود أهل كتاب في بلدنا من هذا النموذج.. جوني الذي أنصفتني ونصرني في ذلك الموقف حين كنت أقف وحيدا بين نارين: شرطي مجرم في الخارج، وسجين حاقد في الداخل، ولا تزال تربطني معه صداقة طيبة حتى يومنا هذا.

جورج سمعان سجين آخر كان معنا، كان مضطربا نفسيا، يعاني من فراغ فكري كبير، وقد سألتني عن الإسلام عدة مرات.. حاول الانتحار في السجن، وقد علمت أنه انتحر بعد خروجه من السجن.

محمد كان أيضا معنا ومن حزب الكتائب، لم يستطع تحمل شدة السجن وفقد عقله، لكنه كان مسالما.

كان محمد يلاحظني أصلي بعيوني إيماءً، فاقترب مني ذات مرة وقال لي: «لاتصل».. ثم انصرف.. هزرتُ رأسي وابتسمتُ ولم أعلق على كلامه.

بعد أيام رأني مرة أخرى أصلي، فقال لي: «ألم أقل لك لا تصل؟».

قلت: «نعم، قلت لي، ولكن كيف لا أصلي، والصلاة فرض في الإسلام؟»..

قال: «أنا مُحَمَّدٌ (يقصد النبي محمد)، وأقول لك لاتصلي!»

كان طريفا ويقول لي: «أكثر من شرب الشاي حتى ينبت الشعر في رأسك لأنك أصلع!»!

### الانتقام الرباني ١٩٩٤

كنا في غيايت الجب، معزولين عن العالم الخارجي تماما، ولا نعلم بالأحداث المهمة إلا بعد دهر من الزمان وذلك عندما يصلنا سجين جديد، فنستقي منه الأخبار، ونجلس حوله بعد أن يسترد أنفاسه بعد حفلة الاستقبال، ونسمع منه ما يدور في هذا العالم وكأننا من أصحاب الكهف.

فمثلا لم نعلم بانتهاء الاتحاد السوفييتي إلا بعد أكثر من سنة على الحدث، عندما قرأنا في جريدة عبارة «الاتحاد السوفييتي سابقا»، فدهشنا من كلمة سابقا، وفهمنا أن الاتحاد السوفييتي صار من الماضي، وكذلك هدم جدار برلين وتوحد الألمانيتين لم نعلم به إلا بعد سنوات.

كان يرجع السجين أحيانا من الزيارة، فيخبروه أن أمه أو أباه قد توفي منذ سبع أو ثماني أو عشر سنوات، فيدخل المهجع ويجهش في البكاء، ونعزيه في مصابه!

في أحد أيام الشتاء البارد انطلقت المآذن بقراءة القرآن بشكل كثيف لم نعهده من قبل، واستمرت قراءة القرآن أياما.. لم نعرف لماذا؟

توقعنا أن يكون الزعيم قد مات، فمن الواضح أن أمرا جلا قد وقع، فقراءة القرآن المستمرة بهذا الشكل غير مألوفة ولا تحصل إلا عند وفاة الشخصيات المهمة، وخشنا أن يكون الرئيس مات مقتولا، لأنه سوف يحل الانتقام بنا، ولكن هذا الأمر لم يحصل!

على العكس من تخوفنا فإن أمور السجن مالت إلى الهدوء، وخفت شراسة الشرطة، وبقي اللغز قائماً لأسابيع إلى أن استُدعي أحد المساجين في أمر ما وعاد يحمل الخبر.. إنه مصرع الباسل، وهنا انحلّ اللغز، وكان الجواب مفاجأة كبيرة لم تكن في حسابان أحد.

كان ذلك في ٢١ كانون الثاني، في نفس يوم اعتقالنا من السنة بالضبط ولكن قبل ثلاثة عشر عاماً، أنا وأخي، فهل كانت هذه رسالة من رب الأرباب، ومن المنتقم الجبار، أن سيكتوي الظالم بنفس النار التي كوى بها شعبه؟ وهل كانت رسالة خاصة إلى أمي أو أبي، أن الذي انتزع ولديكما من بين أيديكما، هأنذا أنتزع من بين يديه فلذة كبده، وفي نفس اليوم بالضبط بعد ثلاثة عشر عاماً؟

صارت تدور الخواطر برأسي عن هذا الدرس العظيم الذي لَقَّنَهُ رب العالمين للبشر، فحين عجز العباد، وغلبوا على أمرهم، وحسب فرعون أن لن يقدرَ عليه أحد، وحسب أن لم يره أحد، وقال ياأيها الملاما علمت لكم من إله غيري، وظن الجهول أنه خرج من المعركة ظافرا ناجيا.. أتاه الله من حيث لا يحتسب، وأصابه في مقتل، في عقر داره وبأغلى ما يملك.. وانتزع من بين يديه وليَّ عهده.. فيا سبحان المنتقم الجبار، الذي يمهل ولا يهمل، وصرت كلما وصلت إلى قوله تعالى «أليس الله بعزيز ذي انتقام» أقف عندها مليا وأقول «بلى يارب.. عزيز ذو انتقام».. ونظمت حينها هذه الأبيات:

منها اشربين وذق ما الناس قد وجدوا  
واذ ببيتك حبل الموت ينعقد  
حتى أتاك انتقام الله يتقد  
ترى عرفت أخيراً ما هو الولد؟  
وكنت في طرب لما بكى البلد  
والأرض شاهدة والحبل والزرذ  
والدرس متضح فافهمه يا رمد  
إن حان موعدُها ما ردها أحد  
تنبثُ خافية.. ما حدّها عدد  
في الحكم ماضية، لله تحتشد  
ينقضُّ صاعقة في الحزم منفرد

ياساقِي الناس من كأس بها النكدُ  
أرسلت حبالاً على الأعناق تخنقها  
أوقدت بركان حقد زافراً محناً  
لما سمعت بكاءً شكلاك بأسلها  
كم قد فجعت أباً بابنٍ ووالدة  
على الألوف من الأزهار إخوتنا  
ما كان موت الفتى يأتي مصادفة  
إن يعجز الناس فالأقدار نافذة  
لله في خلقه جندٌ مجنّدة  
في العين مهملة، في الوزن راجحة  
سيفاً المنية إذ يهوي القضاء به

\*\*\*

يمناك خيراً، ولا اليسرى لها الرشد  
وعرشٌ بغى إلى الإجمام يستند  
ونصبوك إلهاً.. بئس ما عبدوا  
والقتلُ منطقة، والصدقُ مُفتقد  
في عنق من دمها؟ يا وغدُ تعتقد؟  
ترمي الدعاء وإذ بالعرش يرتعد  
حتى قضى ابنك فانظر ما جنته يد

يا قاتلاً نجله بالظلم لا ظفرت  
أغوتك سحّب من الطغيان آثمة  
وغرّك الهرج بالتطويل قد برعوا  
ربّ المجازر، والإرهابُ حكمته  
تلك القوافل في الصحراء ما نسيت  
يا ربّ أمّ على الأحزان عاكفة  
ظلت تُهيل عليك اللعنَ السنة

\*\*\*

يا حاكماً زمناً بالغدر محتقناً      وفي طباع الوحوش الغدر مُعْتَمَد  
ورمز عارٍ مدى الأزمان تحمله      أبشربهاويةً في جيدك المسد  
فأنت حافظٌ لم تحفظ سوى سَقَطِ      وكنت مفترساً للشعب يا أسد  
موت الباسل في مذكرات أبي رحمه الله:

«بينما أنا في صلاة الفجر كسير الخاطر أمام رب العزة، حيث اعتدت أن أدعو للأسرى من أبناء المسلمين بالفرج، وأختم توجهي بالدعاء لأولادي، سألت الله بضراعة فقلت: يارب هل يمكن أن أغادر هذه الدنيا دون أن أرى مَنْ ظلمني يذوق من بعض الكأس الذي شربته؟»

(ملاحظة: كان هذا التشبيه بالشرب من كأس الظلم توافقا في الخواطر بيني وبين والدي، فيا سبحان الله).

لم يتأخر الجواب، فهل كان حقا جوابا لسؤالي؟ ولكن من أنا عند الله؟ قد أكون أحقر من أن أطلب من الله العظيم طلبا، ولكن ألم يقل رسوله الكريم: اتقوا دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب، هل كانت أبواب السماء مفتوحة؟

كان الجواب الذي لم يخطئ في يوم الجمعة ٢١ كانون ثاني ١٩٩٤... نفس يوم اعتقال ولدي الحبيبي بالضبط... ألم يكن ردا إلهيا؟ لقد ذاق صانع الأيتام والثكالي بعض ما أذاقهم.

في اليوم التالي (السبت) حُشرت القطعان من كبير وصغير ليحزنوا - تحت إجبار قوى المخابرات- على من كان مُخطَّطا له لولاية العهد.. لمدة أربعين يوما حُشد الملايين في مسيرات الحزن المفروض، أقفلت

كلُّ الأسواق وتجمّدت الحياة بأوامر كلاب المخابرات. أقيم له ضريح في القرداحة كأضرحة الملوك وأصبح مَحَجًّا للخراف والمهرجين والممثلين. ومن البليّة أن يعطي أحد المشايخ القتلَ صفة الشهيد!.. إنه باسل الأسد: ١- الرائد ٢- المهندس ٣- المظلي ٤- الفارس الذهبي.. والذي بلغت أرصده النقديّة في النمسا وسويسرا عشرات المليارات من الدولارات.»

### الشعر والرسائل

كتبت في هذه السنوات الطويلة قصائد عديدة، أولها كانت لأخي الشهيد حسام، والثانية كانت رسالة إلى أمي، ثم إلى أبي وأخواتي وبيتي وذكرياتتي.. وكنت أرسل هذه القصائد مع الخيال، أو الرياح أو الطيور.. وأظنها كانت تضيع في الطريق!

وكنّت كثيرا ما أنغنى بذكرياتتي مع أهلي وأسترجع الأيام الخوالي والنعيم والرخاء الذي كنا نعيش فيه، وأتذكر أبي كيف كان حريصا على أن نكون مثاليين في كل شيء، وكان يسابق الزمن من أجل تعليمنا، وأذكر كيف سبّقتني في تعليمي سنتين دراسيتين عن أقراني، فإذا بي أهوي خمسة عشر عاما إلى الورا في غياهب الكهوف!

### الزيارة الثانية عام ١٩٩٤

في تلك السنة أتحت لي زيارة أخرى من أهلي، بعد أن مضى على زيارتي السابقة عشر سنوات كاملة، لم يصلني عنهم أي خبر، كان اللقاء مشحونا، وقد بدت الشيخوخة والإرهاق على والديّ، والحزن قد فعل في والدتي ما فعل، حتى أنها عند دخولي غرفة الزيارة هبت واقفة، ولكن قدماها

خذلتها من صدمة اللقاء، وارتدت إلى الخلف وسقطت على المقعد الذي كانت جالسة عليه ولم تقوَ على الوقوف، سارعت إلى تقبيل يديها، كان الألم واضحاً في قسمات وجهها رغم أنها حاولت أن تتصنع الابتسامة.. الابتسامة المذبوحة منذ أربعة عشر عاماً.

أخي الصغير «مهند» حضر في الزيارة.. كم كنت شغوفاً به في صغره وأوليئته من اهتمامي الكثير... ولطالما حلمتُ به في سجنِي وناجيتُهُ ونظمتُ له القصيد. كان قد مضى على فراقنا أربعة عشر عاماً.. تركتُهُ ابن سبع سنوات، وقد بلغ الآن أحد وعشرين عاماً، ولم أرهُ منذ ذلك الحين، وصار كما كنت أتخيله في قصيدتي شاباً (في قَدْر الرجال).. عرفته فوراً، وكم كنت مشتاقاً لرؤيته، لأنه لم يكن حاضراً في زيارتي الأولى قبل عشر سنوات، وقد حرّ في نفسي أن لا أراه.. وكان يحاول أن يضفي على اللقاء طابع المرح والدعابة، فيقول (يكفي في العائلة طبيبان، البلد بحاجة إلى سبّاك وبلاط ودهان).

هذه إحدى القصائد التي أرسلتها إلى أخي:

وأحلى ذكرياتٍ في خيالي	شقيق الروح يا حُلْم الليالي
وذوّب أسطُري لهبَ المقالِ	ذكرتُك يا أخي فاهتزّ قلبي
إليك رسالتي عبر الجبالِ	فرحتُ أخطُ من قلمٍ كسير
رسولاً، أم تضيع على الرمالِ	ولا أدري تراها هل ستلقى
وصرتَ اليوم في قَدْر الرجالِ	تركتك يا أخي وأنت طفل
وهأنذا على شفة الزوالِ	وكنتُ بوقتها نصراً فتياً
يغصُّ اليوم من فقد الغوالي	وبيتٍ كان للأحباب ورداً

فأصبحنا: أخٌ منا شهيدٌ  
 ألا وامسحُ برفقٍ دمعَ أمي  
 وأخرُ تحت رامية النبال  
 وإن ترها مع الأحزان ليلاً  
 تقومُ تضمُّ طاقتي وشالي  
 وفي سجداتك ادعُ الله كسر  
 لأغلا لي، وحرقاً للحبال

حاول أهلي أن يسألوني عن حسام.. كان الشرطة طبعاً يراقبون كل نفس وهمسة، فتجاهلت السؤال، وأيقنت أنهم سوف يستمرون في محاولاتهم للقاء حسام، وسيبذلون الجهد والمال في سبيل وعود زائفة.. ففكرتُ أن أنقل الخبر إليهم بطريقة الألباز والحيلة، بأن أستعمل كلمة «أبو النور» التي كان حسام معروفًا بها ويكنى بها بين أهل في إشارة مني للدلالة عليه بدلا من ذكر اسمه صريحا.. لم اختر أمي أو أبي لعلمي أن أعصابهما لن تتحملا الخبر.. كانت خالتي حاضرة في الزيارة فرأيت أنها الأنسب لتلقي الخبر، ولثقتي بهدوئها واتزانها، فقلت لها «سلمي على أولاد خالي أبو النور - الله يرحمه-».. فكانت هذه إشارة مني بأن أبا النور قد صار في ذمة الله، وقد فهمتها الخالة.

أنقل وقائع نفس الزيارة لكن برواية أبي رحمه الله:

### زيارة الحبيب أسامة في تدمر عام ١٩٩٤

طلبات متعددة أرسلت إلى رئاسة المخابرات من أجل الزيارة في مضافة تدمر، إلى أن أثمرت بالموافقة أخيراً في ٢٤ تشرين أول وحصلنا على الإذن الخطي لزيارة أسامة فقط دون أخيه حسام، الأمر الذي أصابني بالوجوم طيلة الطريق الذي يمتد ٢٥٠ كم، وقد شمل الإذن: أم أسامة وخالته وأخاه وأنا.

بعد عدة إجراءات في سجن تدمر أخذنا إلى نفس الغرفة التي كنا رأيناها

فيها منذ عشر سنوات. استقبلنا في الغرفة ضابط صف برتبة مساعد (الذي كان يبدو نسخة مصغرة عن حافظ أسد)، وبعد حوالي عشر دقائق أمر باستدعاء أسامة.. وكان لقاء الدموع والآهات..

لفت انتباهي مخاطبة أسامة لضابط الصف ب (احتراماتي سيدي)!.. فرأيت العلم والأخلاق والمُثل العليا أين يكون مكانها!.. تحت أحذية الجهلة السفلة جلادي الديكتاتور في السجون.

### تعليق من خالي عاصم على تلك الزيارة:

فيما يخص الزيارة الثانية لك في تدمر... طلبت مني والدتك أن أتكلم مع أحد المسؤولين من أجل زيارة لك.. سألت فقيلي لي أن الشرطة العسكرية هي المسؤولة عن سجن تدمر، وكانت تربطني مع العميد «رسمي العيد» وشقيقه المسيحيين من حوران علاقة صداقة، فأخذت أمك بسيارتي وذهبت معها الى القابون حيث مدرسة الشرطة العسكرية... استقبلنا العميد بكل ود وقبلي وشرحت له الموضوع.. اتصل هاتفيا وسأل عن اسمك فيما إذا كنت من سجناء تدمر.. جاءه الجواب بالإيجاب فأمر بإعطائنا إذنا بالزيارة. كان العميد عبد الرحمن قد أبلغني عن إعدام المرحوم حسام واصابة عينه، وكان قد علم بذلك عن طريق صديقه عدنان بدر حسن رئيس الفرع السياسي، ولكنني اضطررت إلى كتمان الأمر أمام الأهل خشيةً على مشاعرهم.

### ابتهال

إلهي بسطتْ أكف الدعاءِ      وقد بسط الظلمُ جُنحَ البلاءِ  
ولفَّ الأنامُ سكونٌ وليلٌ      وضجَّتْ شجونِي وعزُّ دوائِي

أريد الشراءً وذخري قليلٌ  
 ودون المنالِ مصابٌ جليلٌ  
 ودنيا دعنتي، ونفسي تميلُ  
 نسيتُ مرادي وشقَّ الرحيلُ  
 فتاه المسيرُ وضاع الدليلُ  
 صرختُ هلوفاً أغثاً يا وكيلُ  
 وأمارةُ السوء تبغي المرامَ  
 لتقذفني في بحور الندامة°  
 تهيجُ بها الضارياتُ الرهيبة  
 فينبتُ ثأراً بماءِ المصيبة  
 فتسخرُ مني سهامُ الزمان  
 فلا نامتِ العينُ عينُ الجبان  
 وترسلُ سيلَ الردى والرياحا  
 وهذا عدوي دمائي استباحا  
 وأشعرُ حتفي يجيءُ اجتياحا  
 يغيثُ العبادَ.. يداوي الجراحا  
 أسيرُ مساءً.. طليقُ صباحا  
 وأرقبُ فتحاً على الأفقِ لاحا  
 ويخطفُ شيخاً وطفلاً رضيعا  
 بمن كان جلدأً وكان جزوعا

إلى مبتغايَ طريقَ طويلُ  
 فكيف المفاضُ بسلعةِ ربي  
 مشيت إليها أنوءُ بحملي  
 أجبتُ نداها فأغوتُ فؤادي  
 قعدتُ بظلٍ لدنيا تغني  
 ولما أفقتُ بوادي الأفاعي  
 أريدُ الخروجَ لشطَّ السلامة  
 وترسلُ موجَ الهوى والأمانِي  
 أسيرُ بغابةِ رعبٍ مُريبة  
 وأسمعُ رجعَ الضحايا أنيناً  
 وأحملُ درعي اتقاءَ الطعان  
 متى ردَّ عنك احتراسُ قضاء  
 تهيجُ المنايا وترمي الرماحا  
 تزلزلُ أرضي تهدمُ سقفي  
 فأسقطُ بين مخالِبِ يأس  
 وأذكرُ أني بحفظِ عظيم  
 وأوقنُ أني إذا شاءَ ربي  
 فتسري الحياةُ وتشرقُ نفسي  
 قطارَ الحياةِ يمرُ سريعاً  
 وسهمَ المنونِ ليس يبالي

يساوي الأميرَ الفقيرَ الوضيعا	وطاحونةُ الدهرِ تحت رحاها
وأين عذابُ السجينِ مُريعا	فأين ظلومُ يتيههُ اختيالاً
ونُبعثُ منها سواءاً جميعا	يزولُ الجميعُ ونمسي ترابا
يدوقُ الجنةَ العذابَ الشنيعا	وبعدِ النشورِ حسابٌ ووزنٌ
جوارَ الرسولِ ومثوى رفيعا	إلهي سألتُكَ بالمكْرُماتِ
وهذا دعائي لَدَيْكَ شفيعا	ولا رَبُّ قَابِلَتَنِي بفعالي

### السنة الأخيرة في السجن

في السنة الأخيرة حصل تطور جديد معنا، إذ صارت تصلنا الجرائد الرسمية لأول مرة بعد ١٤ سنة من الانقطاع والعزلة الكاملة عن العالم الخارجي.. ومع أنها كانت ناطقة باسم الحكومة ومقالاتها الفارغة، فإننا كنا نقرأ جميع ما فيها من أخبار (عديم ووقع بسلة تين)، حتى الأخبار التافهة (ومعظمها تافهة)، وكنا نستنتج منها أخبارا قديمة، وقد يكون مضى على الجريدة أسبوع أو اثنان أو شهر، ومع ذلك كانت لنا نافذة على العالم. كان من جملة ما قرأت حينها تفاصيل موت باسل وما رافقه من مواقف وتعليقات (طبعا وذلك بعد سنوات من موته) وقرأت كلمة الشيخ سعيد البوطي آنذاك، وتفاعلت بها كثيرا، وكنْتُ لا أصدق ما أقرأ، وشعرت بالتقرُّز والغثيان ثم لم أتمالك نفسي أن بصقتُ على الجريدة.. فقد كنت في يوم من الأيام ممن يستمعون وينهلون من علمه، وما كنت أتصور أن يمشي علماؤنا في مواكب النفاق للظالمين.. كنا نعدُّب ونقتل في السجون، وعالمنا الفاضل ييكي على الظالم ويشهد له بالتقى ويعطيه بطاقة الدخول إلى الجنة!

أذكر قصة العز بن عبد السلام التي سمعتها من البوطي عندما كنت أرتاد دروسه.. كيف كان يقول كلمة الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، حين وقف ضد المماليك، وأفتى ببطلان شرعيتهم في الحكم.. وفي إحدى الليالي وبعد أن ضاقوا به ذرعا حضروا إليه ليقتلوه، وحاصروا بيته.. فرآهم ابنه، فهُرِعَ إلى أبيه وهو يقول له : يا أبت انجُ بنفسك، إنهم الجنود يريدون قتلك.

فما كان من العز إلا أن قال: «يا بني إن أباك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله»، رواها البوطي وقد تهدج صوته ودمعت عيناه.. يا خسارة العلم. نعم يا خسارة علمه الذي وظَّفه في خدمة الطاغوت.. ولسخرية الأقدار أن قتله الطاغوت نفسه الذي أحرق نفسه لأجله.. نسأل الله العفو والعافية وحسن الختام.

لم تتغير المعاملة كثيرا، من حيث الطبيعة الإرهابية للسجن والعقوبات والضرب والتعذيب، ولكن حوادث الموت تحت التعذيب صارت أقل مما سبق، وكأنما كانت الأوامر بأن يكون الضرب دون حدود القتل، واستمر الضرب حتى آخر يوم في سجننا، وخرج بعضنا ولا تزال على وجهه آثارٌ حديثة من الصفعات والكدمات.

تعاقب على إدارة السجن عدة أشخاص، كان آخرهم «غازي الجهني» وكان الأسوأ بغير منازع، فبعد أن مالت المعاملة للهدوء بعد حوالي عشر سنوات من السجن، عادت واشتعلت من جديد بعد استلامه، وصار الجلدُ يبلغ أرقاما قياسية قد تصل إلى ألفي جلدة على الظهر والأقدام.

هذا المجرم كان حريصا على تفقد الطعام قبل وبعد دخوله المهاجع،

وشحَّ الطعام كثيرا على دوره، وكان يراقب التوزيع بنفسه ليطمئن أن حصة الفرد الواحد لا تزيد عن خمس أو ست حبات من الحمص أو ربع بيضة. كان حريصا في التعذيب أن يبلغ أقصى مداه حتى لا يستطيع أحدنا المشي ولا الوقوف، ولا يشتفي صدره حتى يرى المعذب شبه مشلول.. هذا المجرم الذي كان يسعى إلى شلِّ المساجين أصيب في حادث سيارة، فقتل أحد أولاده فورا، وأصيب هو بالشلل، الشلل الذي كان يتمناه لكل سجنائه، وجلس على كرسي العجزة المقعدين لمدة سنتين ثم رحل إلى سقر بإذن الله، وبئس المصير... فسبحان المنتقم الجبار!

### لجنة أمنية في تدمر

في أواخر ١٩٩٥ حضرت لجنة إلى تدمر وبدؤوا يقابلون السجناء، كانت لجنة من كبار ضباط المخابرات، وكان بينهم هشام اختيار الذي قضى مقتولا غير مأسوفٍ عليه في تفجير خلية الأزمة مع آصف شوكت.. كانوا يقابلوننا أفرادا، وكانت المقابلات هادئة إجمالا، ويسألوننا بعض الأسئلة أقرب إلى الدردشة والتسلية والسخرية، مثل هل أنت نادم على ما فعلت؟.. وما هي مخططاتك إذا خرجت من السجن وهل تتعاون معنا؟ لم نعرف ماذا وراء هذه المقابلات، وما الداعي الذي دفعهم للتفكير فينا، ولماذا تذكرونا بعد ١٥ سنة!

بعض المساجين كان حظهم عاثرا في هذه المقابلات. قالوا لأحدهم «نريدك أن تظهر على شاشة التلفاز، وتصرح بأنك نادم على ما فعلت».

خاف المسكين وقال «لا، لا أظهر على التلفزيون».. فلبث في السجن بضع سنين.

وآخر قالوا له: «مارأيك أن تتعاون معنا بعد خروجك من السجن؟» - أي أن يكون مخبراً-. فأجابهم الرجل ببساطة وعفوية: «ياسيدي، بعد هذه الشّيبة تريدني أن أتعاون معك!..» (طبعاً كانت هذه إهانة غير مقصودة) فاستشاط المحقق غضباً، وما كان منه إلا أن خلع حذائه وانقض على الرجل يضربه على رأسه بحذائه.

وآخر قالوا له: «ألست نادماً يا هذا؟».

فقال: «يا سيدي إنما كنتُ أجوّدُ القرآن».

فقال له المحقق: «خليك في المهجع عم تجود».

أما أنا فسألني أحدهم «ما رأيك بحوادث القتل التي قامت بها عصابات الإخوان؟».

قلت له، وأنا أظن أنني أعطيه الجواب المناسب: «إنها خطأ يا سيدي». هاج في وجهي، وفاجأني في ردة فعله، وقال منفعلًا والشرر يتطاير من عينيه: «خطأ.. فقط خطأ.. تقول عن الإجرام خطأ؟ هل هذا جوابك؟.. هل تفجير الحاويات وقتل عمال النظافة خطأ؟ فقط خطأ؟».

فاستدركتُ الموقف بسرعة ورحت أكيل الشتائم والتهم إلى عصابة الإخوان، المجرمين قتلة الأبرياء!.. وأحمدُ الله الذي كفاني شره ويسّر أمري.. أما من كان حظه عاثراً في المقابلة فقد امتد به مجموع سنوات

السجن إلى عشرين سنة أو أكثر، وكثيرون لم يخرجوا إلا بعد موت المقبور، وأحدهم (وأعرفه شخصياً) مكث سبعا وعشرين سنة.

### نقلنا إلى دمشق

بعد أيام بدأوا يذيعون الأسماء، وأركبونا هذه المرة في باصات عادية (بدل الشاحنات المغلقة)، فاستبشرنا خيرا.

هانحن أخيرا نخرج من غيابت الجب، ونغادر هذا المكان المقيت.. نظرتُ إلى أسوار السجن وتأملتُ جدرانه التي تخبئُ وراءها آلاف القصص والأهوال، وحكاياتٍ لا تنتهي من العذاب والقتل والحقد..

هنا أمضيتُ خمسةَ عشرَ عاما، هي زهرة شبابي.. دخلتُ من هذا الباب وكان عمري ٢٣ سنة والآن أخرج منه وعمري ٢٨ سنة.. هنا ضاعت كلُّ تلك السنوات.. تحت الكرياج والجلد والسياط.. والجوع والإهانات.. والرعب والمرض..

هنا استشهد أخي.. وهنا استشهد الآلاف على حبال المشانق، في صمت وخفاء.. مجازرٌ لمدة سنوات تحت أجنحة الظلام..

هنا اغتيل العلمُ والأخلاق والفضيلة.. هنا يحكم الحذاء العسكري، ولا اعتبار لأي شيء آخر.

ياترى هل يعلم أحد ماذا كان يجري وراء هذه الجدران؟.. خواطرٌ وخواطر.. كانت الساعة التي أعطاني إياها أبي في يدي.

أقبل إليَّ أحد أفراد الدورية وقال لي «أنت أسامة؟». قلت «نعم».. فانصرف برهة من الوقت ثم عاد وقال «أعطني الساعة».

كانت الساعة صناعة سويسرية، قديمة ولكنها محببة من قلبي، وذكرى من أبي، أعطيتُ الساعة مُكرهاً، واستغربت لماذا سألني عن اسمي! بعد قليل رجع إلي وقال: «رئيس الدورية يريد أن يحتفظ بالساعة، مارأيك؟».

كانت الخيارات أمامي إما أن أوافق وإما أن أوافق.

استتجتُ أنهم كانوا واقفين يراقبوننا أثناء قراءة أسمائنا وصعودنا في الباصات، فرأوا الساعة في يدي فحفظوا اسمي لكي يسرقوها مني، وجاؤوا بعد برهة من الوقت وافتعلوا هذه المسرحية ليسرقوا الساعة.

وصلنا فرع المخابرات في دمشق، وأنزلونا إلى القبو.. خلال أيام جرت مقابلات أخرى شبيهة بتلك التي جرت في تدمر، أعيد على أثرها أيضا عدد منا إلى سجن تدمر أو سجن صيدنايا، لسوء المقابلة.

بعد أيام حصل الذي كنا ننتظره منذ خمسة عشر عاما... أذيع اسم حوالي عشرين شخصا وأخلي سبيلهم.

في اليوم الثاني تكرر الامر، ثم الثالث فالرابع واستمر المسلسل حوالي شهرا.. كنا فرحين ننتظر الدور، المهم أن الناس يخرجون من قبورهم.

استتجنا أنهم لا يريدون إطلاق سراحنا دفعة واحدة حتى لاتحدث ضجة في البلد، أو لأمر آخر لم نعلمه!

فجأة توقفت سلسلة الإفراجات، ظننا أن الأمر مؤقت، ولكن هذا الانقطاع استمر أكثر من شهر.

بدأ القلق والهواجس المخيفة تدور في مخيلتنا.. فلربما أمرٌ ما قد

حصل في البلد جعلهم يتراجعون عن إطلاق سراحنا، بل ربما غيروا رأيهم وسوف يعيدوننا إلى سجن تدمر، ويا للكارثة!

## الحرية

بفضل الله انزاحت تلك الغمامة وعاد النهر إلى مجراه، وتتابعَت الإفراجات إلى أن جاء دوري في كانون أول ١٩٩٥، قبل إتمام خمسة عشر عاما على سجني بشهر واحد .

لم أصدق ذلك اليوم.. يوم الحرية... ما أغلاها من كلمة وما أحلاها .  
كنت أسير في الطريق وأتساءل هل أنا في حلم.. هل أصدق عينيّ أني أرى الدنيا والناس من جديد.. هل أنا طليق حر.. كنتُ أشعر أني خرجتُ من القبر.. وأتأمل في وجوه الناس السائرين في الطرقات، كلُّ يمشي إلى حاجته وأمره.. كنتُ أتساءل هل يحسُّ بي أحد، هل لفتُّ نظر أحد في الطريق؟ هل يعلم أحد ما عانيتُهُ لمدة خمسة عشر عاما؟.. هل أنا من أصحاب الكهف الذين عادوا إلى الحياة بعد سبات طويل؟ هل أنا غريب بين الناس!.. ولكن لم يأبه أحد لي..

أوهكذا كان الناس يمشون في الطرقات، خلال خمسة عشر عاما حين كنا نواجه فيها الأهوال والموت بأشرس أشكاله.. وإخواننا يعلقون على المشانق... لم يشعر أو يحس بنا أحد.. نعم.. الناس منشغلون بتفاهات الدنيا ونحن كنا نموت في صمت!

أوهكذا مضى علينا خمسة عشرَ عاما وكأن شيئا لم يكن!  
نعم خرجتُ أخيراً إلى الدنيا بعد أن يئستُ وظننتُ أن نهايتي ستكون هناك

بين جدران السجن، وكنت أنتظر قبوري في صحراء تدمر بجانب الشهداء..  
 إذ أنني شاهدت الموت بعينيَّ العديد والعديد من المرات، حتى لم يبقَ بيني  
 وبين جبل المشنقة إلا ذراع، ولكن القدر لم يأذن، وكان في الأجلِ بقية..

كان الأمر لي أشبه بالمعجزة.. فهي بالفعل حياةٌ جديدة، وهاقد خرجت  
 لأعيش عمراً جديداً، وكان هذا من فضل الله أن أعطاني سنواتٍ ما كنت  
 أحسب أن أحيائها.. وأعادني إلى الحياة كما أعاد يونس إلى الدنيا بعد أن  
 كان في بطن الحوت (ولكن حوتنا كان أشد ضراوة).. نعم.. أعادني لألتقيَ  
 والديَّ، وأكملَ دراستي، وأتزوج، ويرزقني الله البنين والبنات.. وأمضي في  
 طريقي أحمل جرحاً قديماً لا يلتئم، وأحمل ذكرى لا تنسى، عن نجم شاركني  
 طفولتي وشبابي وأحلامي ومحنتي، وكان فارساً بطلاً من أبطال الإسلام،  
 اقتفى آثار خطى الشهداءِ ابتداءً من سيد الشهداء حمزة ومرورا بحمزة  
 الخطيب وغيث مطر وطارق الأسود والكثيرين ممن سطوروا ولايزالون  
 يسطرون أعظم ملاحم البطولة والفداء، ورفعوا راية الإسلام عزيزة على  
 مرِّ الدهور، وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإن هذا الدين محفوظ منصور بوعد الله، لم يفلح أعداءُ الله على  
 مدى أربعة عشر قرناً، بحروبهم الشرسة الحاقدة من النيل منه.. وستبقى  
 عربية الإيمان ماضية إلى يوم القيامة، سواءً أ كنا فيها أو لم نكن، فطوبى  
 لمن ساهم في دفعها ومضائها وشدَّ في مسارها، والخيبة والخسارة لمن  
 توانى وتخاذل، والويل والثبور لمن حاول أن يتصدى لها.. فإن كنا مع الذين  
 اعتصموا في عربية الإيمان فهو فوز لنا وأيما فوز.

«يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون».

## يوم الحرية في مذكرات أبي رحمه الله:

يوم الأربعاء ١٣ كانون أول عام ١٩٩٥ كان يوم الفرحة الكبرى يوم أطلق سراح ابننا الحبيب أسامة، هذا اليوم كان حلماً وبفضل الله صار حقيقة. أول ما توجه إلى بيت خالته لأنه لم يكن يعرف مكان إقامتنا الحالي، وبعد أن أصلح قليلاً من حاله اصطحبتة خالته وزوجها وأتوا به إلى البيت.. كان لقاءً فوق الوصف... لقاءً بعد خمسة عشر عاماً من الانتظار.. كان يوم فرحة، ولكنَّ الفرحة جريئةً لأننا لم نر حسام.

كنا لانزال نعيش بالأمل، كان لدي إحساس داخلي بأن أمراً سيئاً وقع للحبيب حسام - النمر كما سمّوه - واحرَّ قلباه.. كان الكثير من الأصدقاء ممن حولنا يعرفون الحقيقة، ومن حسن الحظ أنهم كانوا يكتُمون.

لم أكن أجروّ على سؤال أسامة عن أخيه خوفاً من الجواب الذي لم أكن أقوى على سماعه، إلى أن جاء ذلك اليوم بعد شهر من تحرر أسامة فسألته: هل من أمل في أن أرى أخاك حسام؟ فكر ملياً وقال: لا بابا.. وغرقتُ وأسامة في شلال من الدموع.

تعليق مني (أسامة): مازلت أذكر ذلك الموقف وكان من أقساها على قلبي.. كنت أتهياً لهذا اليوم منذ اثني عشر عاماً، بعد استشهاد حسام عام ١٩٨٢، وكنت أعلم أنني سوف أسألُ هذا السؤال الصعب يوماً ما ولا أدري كيف سأجيب عليه.

بعد خروجي من السجن، ولأشهرٍ عدةٍ لم نذكر اسم حسام رحمه الله، لأننا ولا والديّ، وكنا نتجنب هذا الحديث، خوفاً منا كلٌّ على شعور الآخر..

إلى يوم جاءني فيه أبي، وكان التوتر بادياً على وجهه، وغريباً في مشيته وحركته، وكأنه قد استجمع قواه لهذا السؤال، ولكنه صاغه بطريقة أخرى، فقال بصيغةٍ شديدةٍ الاختصار وكأنه يتهيأ لوقوع الخبر الذي يعلمه، ولكنه يريد أن يتأكد من الحقيقة:

هل أقرأ القرآن لأخيك حسام؟

تفاجأتُ بالسؤال.. وأحسستُ بارتعاش.. شيءٌ ما هزني بعنف من أعماقي.. لم أستطع الإجابة فوراً.. حلقتُ أفكاري فوراً في الماضي البعيد وفي السنوات المخيفة التي عشتها، كوابيسُ مرعبة.. تعذيب.. جوع.. مرض.. إرهاب.. إعدام.. سؤالٌ أعادني خمسة عشر عاماً إلى الوراء.. إلى السجن بما فيه من أهوال تفوق الخيال... تذكرت حسام ومعاناته وابتلاءه الرهيب وصبره.. تذكرت ساعة الفراق وخروجه إلى ساحة الإعدام.. ثم صورته وكأنني به أراه يطوف مع الشهداء في جنات النعيم الواسعة.. كل ذلك دار في ثوان..

كان قاسياً عليّ أن أقول الحقيقة المرة إلى أبي الحبيب، ولكنه أمر لا بد منه.. وقضاء الله قد وقع، وكان يؤلمني أن أرى أمي تعيش مع الأوهام والانتظار الزائف، والناس يؤملونها بالأمل الكاذب، ولكنني فضّلت أن تبقى على ذلك لأنني أعرف يقيناً أنها لن تحتمل الجواب.. فلتعشّ اليوم بالأمل الكاذب.. ولكنها لاشك سوف تكتشف الحقيقة بقلبها يوماً ما..

بعد إطرقة حزينة وتفكير قصير قلت له والغصة تخنق كلماتي، وقلبي ينزف ألماً: نعم يا أبي اقرأ له القرآن..

هزّ برأسه وكأنه يعلم الجواب سلفا، وانصرف فورا بدون أي تعليق أو مزيد من الأسئلة.. ولم نكن نستطيع التطرق لذكر أخي حسام الدين بعد ذلك اليوم.

وتشاء الأقدار أن تدور عجلة الزمان، وينتفض شعبنا العظيم في وجه الطغاة، ويُطلق ثورةً لم يشهد التاريخ لها مثيلا في عِظَم التضحيات والصبر والثبات.. ونعود نعيش فصول الرواية من جديد، فصول القتل والترويع والاعتقالات، ونشهد حربا نصيريةً مجوسية قدره، مجردةً من أدنى معايير الإنسانية، جاوزت بكثير همجية المغول ومجازر هتلر وجنون نيرون.

هؤلاء أبطال سوريا باعوا أرواحهم رخيصة لله، حتى يعيدوا الحرية لوطنهم الذي سُرقت منه كرامته وهويته وإرادته على مدى خمسين عاما، تلك الحرية التي تغنى بها الناس منذ آلاف السنين، ومات من أجلها الملايين.

أيا دارَ أحبابي ومهدَ ولادتي	ومهبطَ أحلامي، لقد عاد أسراها
أتيتُ إليك اليوم أعصفُ قوة	أجددُ أسيافي، وأمضي بأمضاها
لئن رأيتِ الشيبَ طاف بهامتي	فقلبي لأسد الموت ما هاب لُقيهاها
سأمضي بعون الله بحر عواصف	تهيجُ بموج الثأر.. تأتي بأعتها
تمزقُ ذئب الكفر.. تطمسُ وجهه	ويذبح بالكف التي كان أدمها
فإن كان نصرُ الله فهو رجاؤنا	وهذي وجوه النور بانت ثناياها
وإن كانت الأخرى فتلك شهادة	وروحاً لدين الله بالخلد بعناها

## فَهْرَسْتُ الْمَحْتَوَاتِ

٣	..... أسامة هشام
٧	..... يوم الاعتقال
١٢	..... بداية الشرر
١٣	..... حوادث الدستور:
١٦	..... أبي والاستعمار الفرنسي
١٧	..... أنقل كفاح أبي ضد الفرنسيين كما كتبها في مذكراته:
١٨	..... فوزي القاوقجي برواية أبي - رحمه الله-:
١٩	..... أبي وحكم البعث
٢٣	..... مروان حديد
٢٦	..... حُمَى الاغتيالات والاعتقالات
٢٩	..... البرتقالة
٣٢	..... التحقيق
٣٧	..... تدمير
٣٨	..... المهجع:
٣٩	..... عبد الحلیم:

- ٤٠ ..... الشرطة:
- ٤١ ..... التنفس:
- ٤١ ..... البلدية:
- ٤٣ ..... توصية خاصة بالمتقنين:
- ٤٥ ..... رئيس المهجع:
- ٤٧ ..... الحارس الليلي:
- ٥١ ..... عبد الوهاب:
- ٥٢ ..... أبودان:
- ٥٣ ..... حسام
- ٦٠ ..... مجزرة حماة
- ٦٣ ..... المحكمة
- ٦٧ ..... تدمير الجامعة
- ٦٩ ..... هاشم الرفاعي
- ٧١ ..... المسؤول الصحي
- ٧٢ ..... حمدي لطفي:
- ٧٤ ..... الأمراض المعدية:
- ٧٦ ..... الحاجة أم الاختراع:
- ٧٦ ..... فيصل غانم

٧٨	الصاعقة .....
٨٣	قوافل الشهداء .....
٨٩	المواقف كثيرة وكثيرة.. ..
٩١	تجربتي مع الشعر .....
٩٣	الزيارة .....
٩٧	مؤمن .....
٩٩	تدمير والعصر الذهبي .....
١٠١	اجتماع المسؤولين الصحيين .....
١٠٤	تجديد البيعة .....
١٠٥	سنوات طوالٌ ثقال .....
١٠٩	”وأصبح فؤاد أم موسى خاويًا“ .....
١١١	الفيل: .....
١١٢	مع الكتاب .....
١١٦	جوني .....
١١٩	الانتقام الرياني ١٩٩٤ .....
١٢٣	الشعر والرسائل .....
١٢٣	الزيارة الثانية عام ١٩٩٤ .....
١٢٥	زيارة الحبيب أسامة في تدمير عام ١٩٩٤ .....

- ١٢٦ ..... تعليق من خالي عاصم على تلك الزيارة: - ابتهاج
- ١٢٨ ..... السنة الأخيرة في السجن
- ١٣٠ ..... لجنة أمنية في تدمر
- ١٣٤ ..... الحرية
- ١٣٦ ..... يوم الحرية في مذكرات أبي رحمه الله: